محمد رفيع



ابن بحر

ابن بحر

للكاتب

محمد رفيع

فهرس

إهداء

استقام موجك فاستقمت

وحويت ذخائر شتى

فإليك قمت

نهلت من سرك حتى

حتى ما شبعت

أبي

ديدني ومذهبي

حنانيـك أن أهدي إليك كتابيـا

وما لي

أهدي سطورا لصاحبها

وما لي

غيرك فى الدنيا صاحب

ابن بحـر

خيط رفيع من الدهشة في

مجموعة ابن بحر لحمد رفيع

هذه مجموعة قصصية متميزة، يكتبها شاب قاص، يحمل هم القصة القصيرة مع كتابها الجدد. فهو لا يريد أن يكتـب القصة القصيرة فقط، بل يود لو أنها أضافت شـيئا أو علـى الأقل تميزت وسط عشرات الكتابات الآنية.

وقد نجح محمد رفيع في مجموعته ابن بحر أن يجمع بين الكتابة الواقعية، واللغة الشعرية أو اللغـة المكثفـة، وهـذه الرؤية الساخرة لتناقضات الإنسان في كل زمان.

ابتداء من اختيار العناوين: كامب داليا، حدث ذات صباح، زوجتك موتي، شرك شراكة، بسمة البحر.. زوجية الأرجل، سيرة ملهاة، رباب التي، التاريخ مقابل الجرجيـر، أخيـرا.. مت، رفيع دونالدز ١، ٢، صلاة البحر، ركعتـان وأغنيـة، أسطورة ابن بحر. اكسر الناي وخني.

إنه في أربع عشرة قصة قصيرة، تتراوح بـين الطـول والقصر يحافظ على هذه الميزات. إنها بالفعل مجموعة مـن القصص القصيرة، لا تزيد على خمسين صفحة في مجملها، لكنها ممثلة لمحمد رفيع، وقد يفهم المتلقي ما يخفيه الكاتب - أحيانا - من رؤى سياسية تسقط على العلاقـات الإنسـانية اليومية. وتضع النص في وضع رمزي يساعد فـي تأويلـه

وكثرته أو تكثيره بحسب فهم المتلقي ومواقفه من أطروحات قضايا الكاتب. ونفهم منذ السطر الأول فحـوى الـنص، إذ يبدأ القاص بصورة مجسدة توازي ما يريـده حتـى نهايـة النص، وفي صورة شعرية تدفع إلى الابتسام منـذ اللحظـة الأولى.

مثال على ذلك ما يقوله في قصته كامب داليا: "لـم أكـن أبدا خائنا، كانت صرختي الأخيرة في تلك الليلة العجفاء التي زحفت إلى عمري بلا سيقان.." حيث تتوازى الجملـة مـع القفزة السياسية والفنية التي يشاهدها البطل في التليفزيون.

الأمر نفسه في قصة حدث ذات صـباح حـين يقـول: استيقظت من نومي مفزوعا، وكأنما لدغتني عقـرب تحـت جلدي، كان عقرب الساعة يمشي متثاقلا رافعا ذيله الأسـود في وجه الوقت.. أو يقول: كيـف يمشـي الإنسـان وقفـاه للأمام.. التي تتفق مع النهاية التي وضعت البطـل والنـاس جميعا يمشون إلى الخلف. وهكذا يمكن متابعة بقية القصص حتى نهاية المجموعة وهي نهاية مفزعة تتوازى مع أسطورة ابن البحر الذي يقول: أنا الذي هتكت بكارة أمـي برأسـي

المدبب، صرخت لما اكتشفت أن قابلتي سماء واسعة ومهدي صخر...

وقد حافظ الكاتب على هذه السمة في العناوين وبـدايات القصص التي تشير إلى نهاية المطاف في الـنص وتخلـق توازيا نصيا مع القضايا التي يثيرها البطل أحيانا، والمؤلـف أحيانا أخرى.

ويحافظ الكاتب على استخدام الضـمير المسـيطر (أنـا) ليشعرك دائما أنه البطل، وأنه حميم معك، يقربك من عالمـه منذ اللحظة الأولى، ويضع نفسه موضع الاختبار باستمرار. حتى عندما يقدم شخصية أخرى مثل ضابط المباحـث فـي قصته رفيع دونالدز فإنه يتحدث كسارد يخبرنا عنه، وعـن غيره في قصص أخرى. وهذا الراوي العليم الذي يعرف كل شيء عن شخوصه، قادر - دائما - على إثارتنا بمواقـف ساخرة تمتد حتى النهاية.

ومن هنا لا يهم الحدث المقدم، بل التعليقات والتحلـيلات التي يقدمها الكاتب، لأنها موطن سره، وخبرته فـي الحيـاة والكتابة. ومن ثم يهتم محمد رفيع برسم صورة شعرية بلغة بسيطة للكائنات الإنسانية التي يرسمها ويحركهـا. ويرسـم

النادر أو المشهد مهتما بتفاصيل تصلح لأن تكون سيناريو أو إطارا لسيناريو قادم.

إن العناية بالتفاصيل موجة عارمـة لكنهـا تفاصـيل لا تستغني القصة عنها. ليس فيها مشهد زائد عن حاجة النص. ولا ينسى رفيع هذا القدر المتوازن بـين التحليـل النفسـي والاجتماعي للشخصية أو للحدث، وبين لغـة الـنص التـي تظهر دائما أنها لغة البطل أو لغة السارد. إنها لغـة وحـدة منطق الأحداث وحدود المشاهد، وتكوينات اللغة التي حرص المؤلف على أن تكون فصيحة أو متفاصحة. ذلك أنه كاتـب ملتزم بقضايا هذه الشخصيات ولا يكتب عنها لأنها مكونات نصوص سردية، بل على أنها نماذج إنسانية تعـيش بيننـا وتحمل قضايانا. ولم يترك الكاتب فرصة إلا وعالج قضـايا الانحراف الشخصي والأسري دون أن يشعرنا أنـه يكتـب القصة من أجلها. بل نراه يعبر بقضايا المخدرات أو الغـش أو الخيانة كأنه يتحدث عن قضايا الفقد أو النسيان.

إنها ظواهر إنسانية كلها. إلا أن اللغة البسيطة التي كتب بها رفيع تجعل بنيـة الـنص بسـيطة يمكـن أن تقرأهـا (المجموعة) في ساعة واحدة، لكنها بهذه البساطة – ستعيش

معك فترات طويلة. ومتعة القراءة ستمكث بذاكرتك شـفافة حتى تقرأ مرة ثانية لمحمد رفيع.

أقدم هذا الكاتب المتميز راجيا أن نقـرأ لـه – قريبـا – مجموعة أخرى، أو رواية جديدة.

أ.د: مدحت الجيار

رئيس قسم اللغة العربية ـ كلية آداب الزقازيق

بسمة البحر.. زوجية الأرجل

تنـام حكاياته على شفاهه وجفوني. طالما نام في مكانه وكأسه فارغة، أحيانا كانت حكاياته تزيدني يقظة، أخرج من الغرفة منتشيا بالهواء الأسود بفعل الليل، أقف علـى سـطح مركبه العتيق، ذلك المركب الذي حمله خمسين عامـا فـوق الموج. لست أدري ما الذي يعجبه في أن يخرج في كل مرة إلى المياه الدولية رغم أن البحارة طالما حذروه أن شيخوخته وشيخوخة مركبـه لا يسـتطيعان الصـمود طـويلا أمـام العواصف.

غريب الذي جعلني أوافق على اصطحابه في رحلاتـه المجنونة، ربما ماء الحياة الساكن جعلني أبحث عن مغامرة مهما كانت خطورتها. كان يستيقظ مع أشعة الشمس الأولـى وصيحات النورس الجائع. سألته عن العواصف وما يعده لها لو قامت إحداهن ناهضة في وجهنا. قـال إنـه لا يخشـى العواصف فهي حالة واحدة من حالات البحر الكثيرة، وهـو يعامل البحر كأحد أصدقائه وعليه أن يقبلـه بكـل حالاتـه، وأردف: إن البحر في أقسى انفعالاته لا يخلـو مـن الرقـة والعذوبة، فهو يجري لك عواطفه قبل عواصفه، فيبعث إليك

بالنورس ليحذرك قبلها بساعات، وكأنه يعتذر لك مقدما عـن جنونه، ويشير لك بأطراف أمواجه على السحب علك تفطـن من سرعتها واتجاهها أن العاصفة آتية.

وأحيانا يبعث لك إحدى بناته تحذرك بشكل حقيقي.

–بناته!!

قلت مستغربا وأردفت:

–إياك أن تقول لي إن حوريات البحـر تظهـر علـى السطح، لتحذر

البحارة، كما في الأقاصيص التـي طالمـا اختلقتموهـا لتتغلبوا بها على الحنين والخوف.

– حدث لي ذلك أربع مرات.. جميلات جدا، أنا شخصيا كنت أفكر في الزواج من إحداهن لولا أن نصفها الأسفل لا يلائمني.

وقال: إن ا خلق الحوريات كي تعرف كيف تصغي إلى المرأة، دون أن يشوش على سمعك صوت الجنس العـالي، وإن الحورية تحاورك وتغنيك وتعرفك أن القبلة هي أقصـى ما تستطيع منحك إياه بجانب ملمس جلدها الناعم، لكنك لـو حاولت أن تذهب بيديك إلى الأسفل ستجد القشـور الزلقـة

تيقظك من عبثك المرهق. هكذا تتدرب علـى الـتحكم فـي رغباتك ومشاعرك.

بالطبع كنت غير مصدق لكل ما يقول لكنني اسـتعذبت منطقه الكاذب. بعدها رأيته يشاور بيديه وهو ممسك بمـرآة، فظننته يحاول إيهامي بأساطيره التـي لا تنطلـي إلا علـى الأطفال، لكنه أخبرني أن وابور الأمريكيين العظـيم قريـب منا، وأنه سيذهب إليهم ليأخذ بعض المؤن، فهـم أصـدقاؤه، يعرفونه جيدا منذ حرب الخليج الثانية. وقال لي ممازحا إنهم سيبقون حتى حرب الخليج التاسعة وإنهـم يملكـون أسـلحة جبارة أكبر من أسلحة يوم القيامـة، وغـرق فـي ضـحكة مجلجلة.

استقل بعدها قاربا صغيرا وذهب. أخذت أرقبـه وهـو يبتعد، وفجأة انفجرت ضاحكا على مفارقته الأخيرة أسـلحة يوم القيامة. تذكرت أنه يضع على كل قواربه جهازا لاسلكيا فقررت أن أتصل به وأمازحه حتى يصل، ناديته باللاسـلكي وأخذت أشاكسه وأضحك على مفارقاته الغريبة، قال لـي إن

هناك بعض المجندات أجمل من حوريات البحر، وأجمل مـا فيهن أن ليس لديهن قشورا في الجزء الأسفل.

بعد نوبات الضحك التي غرقنا فيها سويا، قال لي: كفى مزاحا فأنا اقتربت منهم، وإني أريد أن أكـون جـادا حـين أعزيهم على الأحداث الأخيرة فإني جد حزين على الأبرياء، فأبرياء العالم كلهم ينتمون إلى جنسية واحدة.. هي البـراءة، قلت له: أوافقك تماما.. لكن لا تتبرع بدمك سمعته يضـحك ضحكة مريرة، ثم أغلق اللاسلكي.

جلست على أريكته الوثيرة، فتحت المذياع، فلم أسـمع إلا التهديد والوعيد، فما لبثت أن أغلقتـه بامتعـاض. أمسـكت بكتاب أتشاغل به حتى يعود عم سلامة من عنـدهم - يـا لعندهم - نظرت حولي فوجدت آلته الموسيقية التي صـنعها من قواقع البحر الكبيرة، كانت آلة وترية لا يعرف العـزف عليها غيره، تناولتها وأنا أقلد حركاته، لكن ذلك النغم العذب لم ينطلق.

ألقيت الآلة جانبا عندما سمعت انفجارا مدويا، خرجـت إلى سطح المركب والشك يقتلني، وأنا الأعزل، نظرت فـي اتجاه تلك المدمرة العظيمة، فرأيت كتلة صغيرة من النيـران

قابعة بجانبها، أسرعت إلى جهاز اللاسلكي، حاولت الاتصال بعم سلامة دون جدوى. عضني القلق في قلبـي، فصـرخت أنادي عليه بكل حنجرتي، لكن الليل ابتلع نداءاتي، فوقفـت حائرا.

قطع شرودي صوت جهاز اللاسلكي. أسرعت إليه لأجد صوتا يقول لي إن العم سلامة أصيب خطـأ، أصـابه أحـد الجنود الذين يعانون من نوبات عصبية من جراء الأحـداث الأخيرة، فأطلق عليه قذيفة أغرقت قاربه، لكن فرق الإنقـاذ استطاعت انتشاله حيا.

أعلن الأطباء أنه سيحتضر لا محالة، بعدما تمزق جزؤه الأسفل، وهو يريد أن يبلغني بوصيته الأخيرة.

صرخت: عم سلامة.

قال: لا تحزن فجزئي الأعلى مـازال كـاملا، ولا أزال قادرا على إطلاق النكات، أما جزئي الأسفل فسيتبدل بـذيل جميل، أجوب به كل البحار، فانتظرني عنـد المينـاء ذات يوم...

فقاطعته: كف عن هذه الأساطير فأنا مفطور عليك.

قال: ألا تستطيع الضحك؟.. أنا أستطيع حتى في لحظـة الموت... سأخبرك بسر أخفيه عن الجميع. تحت الطاولة في مركبي مقشرتان للسمك، الأولى صغيرة وهى للأسماك فعلا والثانية عظيمة، لحوريات البحر.

وأخذ يضحك ويتألم فـي آن، وأردف قـائلا: صـنعتها خصيصا لأكتشف الجزء الأسفل.

ذهب الصوت فذهبت في نوبة بكاء عارمة، فجأة جـاءني صوته الباسم: انتظر لم أمت بعد.. بقي شيء واحد... ابنتي بسمة تزوجها فهي مناسبة لك.. جميلة.. بل أجمـل حوريـة قابلتها في حياتي، لكنى أقسم لـك إنهـا حوريـة زوجيـة الأرجل.. أقسم إنها زوجية الأرجل.

سمعته يبكى لأول مرة، هذا الضاحك دائما، الذي جعـل كل شيء حوله يضحك: الناس، المراكـب، المـوج.. الآن عرفت لماذا كان يضحك البحر.

غاب عم سلامة وغبت أنا في نوبة حزن مـا لبثـت، أن تحولت إلى غيبوبة حقيقية.

أيقظني طبيب أمريكي بعد أن نقلوني إلى المدمرة. عندما أفقت قال لي القبطان إنهم يأسفون بشدة على هـذا الخطـأ،

وإنهم لأسباب أمنية لا يستطيعون نقلى لميناء الإسـكندرية، لكنهم سينقلونني إلى ميناء حيفا، ومنه بالطائرة إلي بـلادي. كدت أن أذهب في غيبوبة أخرى من هول الخبر، لولا أنـه أيقظني بخبر أكثر بشاعة قال بصوت لا يخلو من المراوغة إن جثمان عم سلامة مدفون في قاع البحر كما أوصى، وإن الحقيبة التي بجانبي بها ما سيعوض عائلته عن فجيعتهم، ثم شد أعصابي بساطا ومشى عليها، كنت أتألم بشـدة، فوزنـه كان ثقيلا وهو يمشي على أعصابي بخطى عسكرية. أغلـق الباب تاركا آثار كلماته غائرة في وجهي.

من لي بغيبوبة أخرى؟ تحميني من الحـزن والإعيـاء، وبينما أحاول جاهدا أن أبقى حيا، سمعت طرقات على الباب.

دخلت طبيبة شابة أعطتني مهدئا، تذكرت بعده قول عـم سلامة إنهن أجمل من الحوريات، لكن القشور لم تكن تغطي جزءها الأسفل فقط بل جسدها كله.

وصلت إلى مطار القاهرة على إحدى طـائرات شـركة العال وأنا في حالة إعياء شديد. لم يكـن هنـاك أحـد فـي انتظاري فتحاملت ومشيت بخطوتي العرجاء حتى سـندتني يد، نظرت خلفي فوجدت فتاه جميلة تتشح بحزن مروع.

قلت:

– شكرا علي المساعدة.

– أنا بسمة.

– ...

– أعرف كل شيء.. أخبرنا الأمن بكل التفاصيل وأمرنا ألا نتفوه بكلمة لأحد.

لم أفهم عبارتها، ناولتني الجريدة قـرأت الخبـر إحـدى المدمرات الأمريكية في البحر المتوسط تحبط عملا إرهابيـا طويت الجريدة، أسقطتها من يدي علـى الأرض، فأحـدثت صوتا على البلاط المصقول، انتبه له رجـال الأمـن فـي المطار. شدتني بسمة من يدي وتمتمت:

أتود أن تصير إرهابيا أنت الآخر؟.

مشيت معها مؤثرا السلامة. كانت ذكرى آخر كلمات عم سلامة تمشي بجانبنا، تحلق على رءوسنا تارة وتارة تسبقنا، كنت مطأطئ الرأس أنظر إلى خطـواتي البلهـاء، سـاعتها نظرت إلى قدميها فابتسم عقلي قالت:

- لماذا تنظر إلى قدمي؟.

-...

- ألأنها زوجية؟.

ابتسمت ابتسامة شاحبة، قالت: حتى أنا سمعت تسـجيلا لتلك الكلمات الأخيرة و.. تلك الوصية.

ومدت لي يدها وسرنا في دربنا الطويل.

زوجتك موتي

التفت إلى الوراء بحثا عنها بين الجموع، امتدت يـدي إلى الفراغ الملاصق لي. أمعنت فيه كأني أسـأله وألومـه. ترى لماذا تأخرت هكذا؟ إنها تعلم أن الندوة ستبدأ بعد قليـل. تلك الندوات التي اعتدنا حضورها منذ فترة غير بعيدة. كانت تلك الندوات وكأنها تضيف شرعية لقصتنا. تضيف التصـاقا على التصاقنا، توحدنا، تشابك عروق القلب بعروق الأرض. كانت آيات فتاة فريدة في عذوبتها، كانـت نديـة، جريئـة، مشعة.

لم أستطع أن أمنع قلبي من أن يجلس عنـد قـدميها، يسبح الحسن المنسكب من خطواتها الرشيقة الطيفية. تقدمت لخطبتها بعد فترة قصيرة من أول لقاء في فنـاء مدرسـتها. اضطررت لأن أقفز داخل مدرسة البنات، بعدما ضيقوا علي الخناق وسدوا الطرق بأحذية وكراهية.

لم تدهش إذ رأتني أمامها فجأة، وكأنما كانت تعـرف ورطتي. سارعت دون أن تنطق ببنت شفة - يا لشفة البنـت وشفافيتها - فأشارت إلى مكان يصلح للاختباء، ما درت أنها اختبأت في قلبي في ذات الوقت.

كان أبوها ذلك الشيخ الحكيم، يخبئ عمق حكمته فـي غضون رسمها الزمن بروية وإمعان. والحق أنه لـم يثقـل كاهلي وأنا أتقدم إليه لخطبتها.

أيقظنا الليل بزغاريد ليلة ميلادنا. وانطلقنـا نـزرع الأرض بخطواتنا، نسقي الساحات ماء حبنا الطفل.

شعرت بلمسة على كتفي لأجد آيات ورائي سـارعت بالجلوس هممت بمعاتبتها قالت:

- كانوا ورائي.

وقاطعنا صوت مقدم الندوة بإعلان بدئها، فمددت يدي لتتشابك بيديها.

كانت الساحة بها عدد غير قليـل مـن الحاضـرين، أعمارهم متفاوتة، لكنى اسـتطعت أن ألاحـظ أن مشـاركة الشباب هذه المرة أكثر.

كنا نهتز مع كلمات المحاضر الحماسية.

كان كتفانا يتلامسان في حركـات لا إراديـة.. يـدانا تتموجان في حوار خفي. كأنها تتساءل عن يوم نتوحد فيـه حتى أقصى حد. لا عيون تكبح فينا نزقنا الأعظم، ولا شيء يحد من اختلاط دمانا. يوم تكونين لي كي أكون. نعلن دولتنا

الصغيرة.. دولة شعبها شخصان، جيشها شخصان، ومواردها قلبان مفتوحان، ويدان تتوحدان. فتضيف إلى الحوار حـوارا وتضيف إلى النهار نهارا.

هيا ردديها "هئت اك" وتعالي نرى برهان ربي فينا.

هلا لبيت هلا صرت في البيت؟

أيقظني صوت المحاضر وقد علت نبراته حتى قاربت التشنج. وفجأة طلب إغلاق القاعة وإخلاءها مـن الشـيوخ وصغار السن. علا الاستغراب الوجوه وصـارت الدهشـة قناعا لبسناه جميعا. أغلقت الأبواب على عدد مـن الشـبان، جلت بعيني في المكان واطمئن قلبي عندما وجـدت ثـلاث فتيات أخريات. نظرت آيات داخل عيني وشدت على يدي.

ترك المحاضر مقعده وأخذ يمشي بثقة بيننا متفرسـا في الوجوه وبدأ حديثه بصوت خفيض عميق:

- ليس لدينا طريـق إلا أن نكـون نحـن الـدروع بأجسادنا.. نكون سلاحا يردع. لابد أن نجـد متطـوعين لا يعبئون بالحياة.. في سبيل أوطـانهم.. لا يهـابون المـوت. يكتبون ملاحم شهادة تصير شهادة ميلادنا جميعا، تصير نقطا بيضاء مشعة في ثوب التاريخ الأسود.

تفرس في الوجوه، ثم أضاف:

- من في هذه القاعة يمكن أن يحررنا وينعم بخلـود أبدي؟ من منكم لن يكتفي بحماس أجوف ويتخطى ذلك بعمل يضيف لحياته ومماته معنى وهدفا؟ أشرف من كل الأهداف. من منكم يستطيع تنفيذ عملية استشهادية في وجه من لا وجه له؟

نظر الحاضرون في صـفحات الوجـوه الحاضـرة.. الباسرة. والصمت وشاح يتشح به المشهد. أخذ عقلي يعمـل بكل طاقته. تساؤلات.. ذكريات.. أفكار متداعيـة لاهثـة.. إجابات موتورة.

وفجأة وقفت آيات في حركة عصبية معلنة أنها مستعدة لتنفيذ عملية استشهادية تلقي الرعب في قلب مـن زرعـوا رعبا في حناجرنا. أخذت تتكلم بسرعة وحماس حتى خلتهـا قاذفا للهب.. كلمات مدببة لها وخز الحزن وطعـم الحريـق تخرج من شفتيها الجميلتين.

كنت جالسا لا أستطيع حراكا، مفاصلي تكلست ولساني مات في حلقي، تملكتني رعشة حتى إصبع قدمي.

بعد أن أفقت من ذهولي – ولم أفق للآن – تركت آيات يدي وتقدمت لتتلقى التفاصيل.

صرخت:

- لا...لا يا آيات... وزواجنا.. وحياتك... وأبوك.. و...

قالت: الزواج سنتزوج، والحياة سنعيشها.

صرخت: متى؟... كيف؟

قالت: سترى.. سنتزوج بطريقة لم يسبقنا إليها أحد، ولن تنبغي لأحد من بعدي.

تحول المشهد لخليط من الكلمات الحماسية والنحيب. تداخلت الصور في رأسي وشعرت بنزيف قلبي وعندما تذوق لساني طعم الدموع المالحة، توقفت عن الكلام.

في اليوم التالي صحوت على صوت أمي تقول لي إن آيات عندنا، وثبت من فراشي إلى الحمام، ضربت وجهي بماء بارد وأسرعت بالخروج.

كانت ترتدي ثوباً رقيقا، أحمر، يضيف لنضارتها نضارة، ولدمائي حريقا.

خرجنا من الدار صمتنا برهة ونحـن نجـوب نفـس طرقات براءتنا.

قالت: لـم يبـق إلا بضـعة أيـام...فلنسـرقها مـن الموت...الوطن يستحق.. سنلتقي يوما.

كانت مشاعري متضاربة. الكلمات خلعـت حروفهـا وسبحت في صمت وذهول.

بضعة أيام أخرى عشناها على ضفاف جنـة الخلـود، كان الموت يطهرنا كل لحظة. كثيرا مـا تخيلـت ذراعيهـا جناحين، وجناحيها أمانا وأمانها حقا.

أيقظتني آيات بعدها بأيام، خرجنا تاركين دعوات أمي على عتبة الباب، كانت تخصها بالدعوة دوني، هكذا كانـت عادتها كلما زارتنا آيات.

ذهبت معها إلى مبنى لم أكن أعرف أنه موجود فـي مدينتها.

أمسكت كاميرا الفيديو. طلبت آيات أن أصور كلماتها للعالم. أمسكت بالكاميرا ورأيتها من خلال العدسات والدموع كأني أراها لأول مرة.

كانت شجاعة مبهرة، بعدها توافد أشخاص عديـدون يشرحون لآيات تفاصيل العملية واحتمالاتها.

كان حزام المتفجرات قابعا على أحد المقاعد، نظرت إليه كأني أتوسل إليه ألا يؤذيها - هذا الذي سيطوقها بدلا من ذراعي - آه لو أخلع ذراعي وأضعه مكانه. بعد أن فرغـت آيات من الترتيبات التفتت إلي وقدمت يدها مغلقة على شيء، قالت: هذا خاتم خطبتنا، استبقه فأنا لا أريده أن يتناثر فـوق أرض الأعداء.. التي هي أرضي، واعلم أني لا أهرب، هذا من أجل أن نزداد قربا... وتحليقا.

أخذت خاتمها وبحركة عصبية وضعته على المنضدة، وأخذت أعمل فيه مطواتي حتى شققته وجعلته حلقـة مدببـة الأطراف. كانت تنظر إلي والدهشة تعلو وجههـا الجميـل، سألتني عن السبب فأجبتها بصوت أشبه بالحشـرجة لأنـي أريده أن ينشب بأحشائي عندما أبلعه فلا أفقده أبدا. وبلعته.. كانت حوافه المدببة مؤلمة ألما وحدني معها. عندها ارتمـت آيات في أحضاني للمرة الأولى – ولن تكون الأخيرة – كان شعورا مهيبا. انسلت آيات مني، وقالت:

- أنا ذاهبة إلى ا فيحسن بي أن أسـتغفر وأتوضـأ

انتظرتها، حملت حقيبتها – وبها حزام ذراعي – وخرجنا في مشهد قدسي مهيب. ركبت السيارة، قالت:

- أوصيك بأبي خيرا.

-.....

-لا تحزن إن ا معنا... ستجدني إن شـاء ا مـن الصابرين.

كانت كلماتها القدسية تسير في دمائي وتطهرها.

صمتت برهة ثم قالت: زوجتك مـوتي... زوجتـك موتي على مذهب.. قاطعتها: على مذهب آيات الأخـرس.. وأنا قبلت.

قالت: دعني أدفع أنا المهر هذه المرة.

انطلقت السيارة بها لتدفع هي مهـري تابعتهـا حتـى اختفت، لتزيد حضورا في الهواء.

عدت للمبنى طلبت من الرجل الجالس على مقعد مـن دهشة، طلبت منه كوبا من الماء وقلما وبعض الأوراق.

شرك .. شراكة

جلست.. فجلس قلبي بين ضلوعي، كانت شائقة الإلماح. لخصت الأمر بعشر نقاط موضوعية، كما لخصت العذوبة برقتها التي لها طعم الوخز. قالت إنها تعمل في مكتب للشراكة بين بلادها ودولة عظمى، وإنها ترى أن الاقتصاد لا بد له وأن يخرج قليلا من عباءة السياسة، لينطلق في فضائه بحرية حقيقية وليس بحرية مفسرة لمصلحة طرف دون الآخر.

كان كلاما بحجم كرات النار، يخرج من شفتيها الجميلتين فيذكرك بمشهد تفتق البراعم في البرية. دأب الحضور طوال اليوم على مناقشة نقاطها العشر، بين مؤيد وحاقد. كانت ورقتها الاقتصادية هي الأكثر سخونة في ذلك المؤتمر، أثارت غبارا ضاريا ولكنه معطرا بالانتماء.

عجيب أمر تلك الفتاة، فعلى الرغم من أنها تعمل في مكتب الشراكة هذا إلا أنها بدلا من أن تروج له ولأهدافه، راحت تروج لضرورة التغيير، والأخذ في الاعتبار بظرفية كل بلد وخصوصيته، بدلا من التجاهل المتعمد العاقر لتلك الثقافات. كانت تتخلل تلك المناقشات بضع راحات، نقضيها في احتساء المشروبات وتعاطي النفاق الاجتماعي.

رأيتها بين جموع المهنئين والمادحين، تجلس واثقة شامخة على ضآلة جسدها الجميل. اقتربت، بعد أن أصبحت وحيدة، محاولا أن أرشف من حضورها في الهواء رشفة، تعيد السلام إلي. هممت بالكلام، لكني لاحظت أنها تحدق في النافذة الدائرية الشاسعة، والاستغراب يغزو ملامح وجهها الرقيق.

نظرت إلى النافذة محاولا معرفة مصدر هذه الدهشة، لكنى لم أر غير سماء القاهرة بأضوائها الخلابة، والنهر ممددا بين الضفتين، يتململ في تكاسل واضح. كان المشهد رائعا من هذا الارتفاع الشاهق لفندق من أروع فنادق المدينة. انتقلت الدهشة كالعدوى إلي، لا لشيء سوى لأنني لم أجد ما يسترعي الدهشة.

تقدمت عدة خطوات نحوها، سألتها، فلم تجب، وبدأت تغوص في مقعدها الوثير والرعب يملأ ناظريها. قالت بصوت أجوف: إنه هناك ينظر إلي. لم أفهم شيئا!! من الذي تتحدث عنه تلك الفتاة؟

بدأ المشهد يسترعي اهتمام الواقفين فهرعوا إلينا. بادرتها: ما الذي تتحدثين عنه يا ندى؟

قالت: إنه يقترب بأرجله العشرة.

نظر الواقفون معي إلى النافذة التي خلت من أي شيء، غير ليل يهبط على استحياء. ازداد استغراب الناس، قالـت بفزع إنه عنكبوت هائل يقف هناك في الأفق، تبـدو أعلـى البنايات بجانب سيقانه السامقة تافهة وقصيرة، وإنه لا يحـب أن يراه أحد، ويسحق كل من يبحث عنـه.. وأعلنـت أنهـا تخاف على حياتها فقد رآها تنظر إليه. وإن سـيقانه العشـر تقف بالمرصاد لأية محاولة أو مطاولة.

ترى ما الذي تهذي بـه هـذه الفتـاة؟ قـال بعـض الحاضرين إنها تعرضت للحسد، قال أحدهم إنها تعانى مـن بعض الهلاوس، لكنها بادرتنا بصرخة ملتاعة.

قالت: ها هو يحاول أن يكسر النافذة بإحدى أرجله.

نظرنا جميعا ناحية النافذة الزجاجية، لم يكـن هنـاك أحد بالخارج ولا صوت يدلنا على شيء. نقلنا نظرنا ناحيتها محاولين تهدئتها، فجأة سمعنا دويا مروعاً نظرنا إلى النافـذة وهي تتناثر في الهواء. تقدمنا نحو النافذة بحذر منتظرين أن يحدث شيء، لا شيء غير الهواء البارد المتدفق من الخارج. نقلت نظري إليها علها تحمل تفسيرا – حتى ولو كان غيـر

منطقي – فوجدتها غارقة في دمائها وعلـى جسـدها آثـار ركلات مريبة.

صلاة البحر.. ركعتان وأغنية

فلاش ١: صلاة البحر

كنا هنا نمشي على تلك الرمال، الحياء جدار لا يفصل بيننا، العيون لا تتعانق مع إيقاع الخطوات الحافيـة.. بـل أسرع، نشمر عن قدمينا، نلج الماء حتى تلامس أكتاف الموج أثوابنا، نقف خاشعين، واليود يدغدغ رئتينا. قداس البحر يبدأ من عينين مسكونتين بالمدى، وليت وجهي ناحيـة الغـرب وتركت الشرق لها، وقفنا ندعو رب المشرقين والمغربين أن نبقى معا كي نبقى، الدمعات الطاهرات تسقط في الماء، تسبح كالبلور وتبتعد، البحر ينقبض وينفرج، فتخر القلـوب علـى أرض الإيقاع.

أسمعها خلفي تقول: جلالك يا رب فيـه. كررتهـا وكررتها، حتى توقف النورس في الهواء كي يسمعها.

آه.. شيء يؤلمني.. شيء بارد يدخل تحـت حجـابي الحاجز، لا أستطيع التنفس أشد الهواء شدا، ما هـذا الـثلج المتكون في الرئة، ما هذا الشيء الخفي/ القدسـي/ الطيـب/ المفاجئ/ المراوغ/ الحاد/ المنساب/ المحتل.. لا.. لا أستطيع أن...

قالت: أتوجعك السعادة مثلي؟

توجعت: آه.

شدتني من دمي إلى حافة الأشياء كلها، كانت حـواف اللحظات ملونة كالأطفال ومراوغة كلحن.

اليدان اتسقتا، أين تنتهي أصابعي؟ وأين يبـدأ مـدها اللؤلؤي؟ عروقي نافرة بارزة كنقش، أكـاد أسـمع ارتطـام الدماء بجدارها الشفيف.

قالت: نبضك في يدي يرعش أطرافي .

قلت: هل أنا بحاجة لأن أقول أحبك؟

راحت في سماوات صغيرة.. ثمة غيوم بيضاء حـول خصرها تطوف، القلب يلملم من اللحظات سكرا، الغـروب هناك.. لا يحدث، شعرها الأسود يطير مع النوارس، ويلوح لليل أن يقترب، الشفق الأحمر يضاهي شفتيها.. ويفشل عطر منغم يصب في العروق، أصداف طيبة نصف مدفونة تداعب الحفا في القدمين العاشقتين، الحياء منفلت، شيء مكتوم فـي الضلوع، لا أستطيع أن أخرجه إلا بقدر، كيف أشتاق إليهـا وكتفانا متلاصقان؟ من هؤلاء الملائكة الذين يرضعون مـن

اللحظات حليب الحياة؟ لماذا تمشط الطيور شـعري بظلهـا الداكن؟

تنبهت.

صوت: يا أيتها النفس المطمئنة..

قالت ذاكرتي: كيف أهرب من هذا.. إلي بالركعتين.. إلي بالركعتين

فلاش ٢: الركعتان

كنت أعد الشواء للأصدقاء المنشغلين بصيد السـمك.. هناك.. كالأشباح والبحر خلفهم فضي، ثمة قمر كبيـر فـي الأعالي يرمي للبحر بالفضة الزائدة. أصدفة أن يوزع القمر فضة في الليل، وتوزع الشمس ذهبا في الصباح؟ جلس الذي لا يملك ذهبا ولا فضة، على كومة يحدق في النـار، وهـى ترقص عارية في الريح، والنوارس كالأطياف تطير تغوص بلحم الظلام، الشواء شواء القلب بعد أن ضن بها أبوها، لأنني لا أملك من الذهب غير روح، ومن الفضة غير دمع. كسـر حلم الأعوام الستة بكلمة صغيرة جدا.. "لا".. تلـك الحـادة كالمطواة.. "لا" شقت دمانا المختلطة إلى دمائين، وخلفت في الجسدين بقايا أرواح، "لا" النافية للجنس.. هذا الذي مارسـنا كل الجنون إلاه.. ربما ادخرناه لسنة سابعة.. لم تأت.

أتيت لهذه الجزيرة هربا من أعوام ستة – فيهن صلاة البحر – هكذا نصحني أصدقائي/أشباحي، بعـد شـهور لـم أعدها، حصلت فيهن على وظيفة تمثال لدى حجرتي المطفأة.

قذفوني في مركب وحلوا القلوع. كانت" لا" كبيرة تقف على الشط والمركب ترحل.

قلت لنفسي: لو تركتها هنا.. ربما لا تلحقني.. ربما لا تعرف السباحة. وعندما أحاطني الماء في الجزيرة، وقفـت على الرمال، سلمت على النوارس التي سمعت "حلالـك يـا رب". فتجمعوا حولي ذكروا محاسنها فبكيت، مسحوا دموعي وأطعموني عسل المناقير، فـرت النـوارس كلهـا دون أن تودعني، ولما تلفُت بحثا عن الذي أفزعها، وجدت "لا" تخرج من البحر ماشية على حرفيها.

وها أنا الآن أجلس فوق كومة أحدق في نـار تغيـر شكلها كل ثانية، فتختلط في رأسي الصور.

"لا" ، النار، شواء القلب، الأشـباح، النـار، "لا". رن الهاتف.. ليخبرني صديق أنه عاد لتوه من حفل زفافها.. وأنه لا يسمعني – ببساطة لأني رميـت المحمـول فـي النـار وهربت، هربت من أذني، تلك الملتصقة برأسـي المتفتـت. شققت ملابسي وجريت في العراء عاريا. ارتميـت علـى الرمال، تدحرجت على الصخور صفعت المـوج بجسـدي، فردني إلى سرطانات البحر تعزيني وتـأكلني.. صـرخت..

صرخت، وضعت يداي علي أذني.. كي لا أسمع.. صوت.. ماذا.. أسمع صوت.. صوت افتضاض الجسد.. هل سـمعت جسد حبيبتك يفتض.. أنت.. نعم أنت يا قارئ دمي.. أسمعت في ليل كهذا صوت.. صرخت.

الدماء من جبهتي تسيل، وأنا أصلي فـوق الصـخور المدببة لأني عدت ارتديت ملابسي توضأت بميـاه الشـرب كلها.. صليت واصطليت.. الدماء تسيل والدمع يغسل صخر البحر، وأنا اصلي ركعتـين فـركعتين وبينهمـا اختنـاق.. صخرتين وجمجمة وليس بينهما غير دم وهيستيريا.

عاد الأصدقاء عطشى.. فراعهم هذا العابـد/ القـانط/ النازف/ الباكي/ الصريخ. رفعوني من صـلاتي بأيـديهم، فأكملتها في الهواء.

تنبهت

الصوت ما زال يرتل ويرتل.

أغنية/ مريم

عدت من "صلاة البحر" والركعتين إلى سورة الفجـر، يقرؤها جالس القرفصاء، حدقت في الوجوه الشاحبة، كانـت القهوة السوداء تحتسي الناس، والرجل ينادي علـي الـنفس

المطمئنة، وأنا أتدثر بذكرياتي كي لا أفهم أن هذه هي مريم.. ابنتها اليتيمة جاءت ممسكة بيد جدها صاحب الـ "**لا**"، كم بريئة يا مريم لا تعرفين للموت معنى، أكيد قالوا لك إن والديك ما زالا في السفر، سمعت من وجه شاحب بجانبي أنهما ذهبا ليحتفلا بعيد.. عيد الركعتين.. لهما الجنة ولنا اليتم.. أنا وأنت.

جئت لأراك يا مريم واحسرتاه في عزاء أمك، ألا تحملين نصفها في جسدك الصغير، هذه العيون أذكرها، كنت أسكنها أنا والمدى، الشفاه التي، الشعر الصوت. ألم ترثي مني شيئا؟ أي شيء، التفاتة، ارتعاشة، نبرة صوت.. أي شيء يا مريم، لا بد أن صلاة البحر تسكن مكانا ما في جسدك.. أكيد.. أكيد.

من لبراءتك يا مريم؟ ولم يعد لك غير جد هده دعائي والزمن. لمن ستكبرين والدمع لون يتمك.. تعالي.. تعالي.. جاءت، أخذت ذراعها الصغيرة، رميتها في حضني.

رائحة البحر ما زالت تسكن شعرها المبتل، ذبت فيها واستكانت قرب دمي حتى ارتاب جدها.

ناداها بحسم، أظنه قال: "**لا**".

كان قلبها الصغير يطـرق بـاب صـدري، حملتهـا واتجهت إليه صافحته

قلت: ألا تذكرني يا عمي؟

قال: "**لا**"

قلت: أنا..

قاطعني بـ "**لا**"

ارتعدت مفاصلي وذكراي، أخذت البنـت مـن يـده، حملتها وجريت خارج السرداق.

حدث ذات صباح

استيقظت من نومي مفزوعا وكأنما لـدغتني عقـرب تحت جلدي، كان عقرب الساعة يمشي متثاقلا، رافعا ذيلـه الأسود في وجه الوقت. تركته يبتعد وقد حـال بينـه وبـين ركلتي تذكري أنني متأخر عن العمل. قفزت ثلاث قفـزات أوصلتني إلى الحمام. صفعني ماء بارد علي وجهي، فـزاد مؤشر الوعي لدي. كانت القفزة الرابعـة داخـل ملابسـي، والخامسة على السلم.

ذكرني هواء الصبح البارد بـ "سفر البـرود" الـذي أتعوذ به صباحا من الأسعار/ التلوث/ الغطرسـة، كـي لا أصاب بجلطة في دمى. وها أنا أتجنب ذلك كل يوم ببطولة منقطعة... منقطعة فقط.

لم يكن هناك أحد بالشارع غير رجل يسكن ضـباب الصبح. كان إيقاعي العصبي متواترا، وصورة المدير الـذي يركب أنفاس الموظفين، تطلع فجأة من أغصـان الأشـجار العجفاء على جانبي الطريق. اقترب الرجـل الوحيـد فـي شارعي المسكون الساكت. تهيأ لي للوهلة الأولى أنه يمشـى بظهره، أمعنت النظر فيه قليلا، فتأكد لي أنـه يمشـى إلـى الوراء فعلا، لم أهتم كثيرا فالمجانين أصبحوا عادة يوميـة،

لعله حاول أن يحفظ قوته دون أن يتلاعب، فتلاعب به عقله، وجعله يستيقظ السابعة صباحا، ليمشي بظهره فـي محاولـة يائسة لإقناع الزمن الجميل بالعودة.

استكملت طريقي دون أن أعيره أي اهتمـام، إلـى أن صادفت مجموعة من الرجال تمشي بالطريقة نفسـها. بـدأ الشك يعتريني، ترى كيف يمشون هكذا؟ هل يسـتطيعون أن يتبينوا طريقهم؟

كيف يمشى الإنسان وقفاه للأمام؟ ولا يخشى أن يقع.. أو يقع كف طائر في طريق قفاه. أدرت رأسي للخلف بعدما اجتازوني كي أتبين ملامـح وجـوههم وكانـت الصـاعقة (فالمنظر الخلفي) كان مطابقا للأمامي.. قفا مقبل من الأمام، وقفا مدبر من الخلف. ساعتها ارتعدت قدماي المسرعتان.

فجأة ظهر رجل أمامي وقفاه سـاطع يمشـي بـنفس الطرية، ما إن اجتازني حتى نظرت إلى الـوراء، أصـابني هلع.. كدت أسقط من هول اللحظة. كيف صار الرجل هكذا؟ أين وجوه الناس؟ كيف يصبر الإنسان علي امتلاك قفيين؟

كنت أحاول إبعاد أصابع الجنون الممسكة برأسـي، حينها رأيت ضابط شرطة يقف علي جانب الطريق بوجهـه المتعالي، اقتربت منه والأسئلة تنسكب من رأسي المخروم.

لوح بكفه في الهواء كأنه سيلطمني، هممت بالسؤال، لكنه أشار لي بالابتعاد تمتم بكلمات لم أفهمها ولم أتبين منهـا غير.. أمن.. تأمين.. ميمون.

انحنيت بمساري مبتعدا عنه وقد تملكني الرعب.

أخذت قدماي تسيران على إيقاع قلبي اللاهث. خطر لي أن أنظر للخلف لأتبين منظره الخلفي، وإذا بوجه صـلد متعال مثل الآخر بدلا من قفاه. حاولت أن أمنع نفسـي مـن الإغماء الذي تسلق ساقي العصبية وكاد يجهز على صدري. تسارعت خطاي حتى صارت هرولة. كانت حقيبتي الثقيلـة تعيق خطواتي، تركتها من يـدي، أخـذت أجـري صـوب الشركة. صعدت السلم المؤدي إلى مكتبي، فتحت الباب رأيت أحد الموظفين بقفاه الماكر مشيرا إلى المصير الذي ينتظرني عندما يراني المدير متأخرا عن موعدي.

ألقيت نفسي على مقعدي، هممـت برفـع السـماعة، محاولا الاتصال بأحد أثق به أحكي له عجب ما أنا فيه. فجأة

فتح باب الغرفة، وإذا بالمدير يطل بقفاه الغاضب، أشار لـي بإصبعه كي أتبعه إلى مكتبه ثم أغلق البـاب علـى أنفاسـي وخرج.

ترددت قليلا، ثم خرجت من الغرفة، لكني لم أتوجـه صوب مكتب المدير أسرعت إلى الحمام، وقفت أمام المرآة، مغمض العينين كأني أخاف أن أفتحهما، تذكرت كل المشاهد التي رأيتها، فتحت عيني بحركة عصبية.. فإذا بقفا سـاطع يبدو أنه لي... أيضا.

أخيرا.. متّ

مفتتح

انسكب الفيروز على خد سماء.. فكان الفجر. صـعد ملاك مبتل إلي غيمة واقفة بالصدفة، تحمل أنفاس ا فـوق ظهرها الفضي، مد جناحيه فنقطا نورا علـى وجـه شـمس عارية، لبست الشمس أشعتها وأذنت للصبح أن يتنفس. كـان الملاك عائدا من قاع البحر بعدما أوصل أوامر الرحمن إلي الكائنات، وعلى الشط ثمة مراكب ترقص مع الموج.

سألني واحد لا أعرفه في يوم: لماذا نربط المراكـب ونقيدها؟ وهي التي تعطينا الحرية بلا مقابل.

قلت: هي ترقص طوال الليل مع الموج، فنخشـى أن يراودها موج عن نفسـها، فتـذهب معـه مسـلوبة الإرادة والأحبال، فنقيدها.. لأننا شرقيون.

الصيادون يتقلبون في دفء الأغطية، والملاك يوزع الأرزاق فوق مراكبهم. صعد الملاك للغيمة ذاتهـا، نفـض جناحيه، تطاير منهما ندى، بلل ريق الإسفلت – الـذي ظـل غامقاً حتى بعد اختباء الليل –. سقطت منـه دمعـة علـى مركبي الراقص رقصته الجنائزية.. فقد كان رزقه غرق.

خاتمة

كنت على عرش من نوم، فسحبتني زوجتي، بصوتها، إلى فجرها الندي. التقت نظاراتنا في منتصف الطريق بـين شفتي وشفتيها - الطازجتين فـي كـل المواسـم -. هـي كعادتها، تصحو قبلي، وتتزين لي، حتى إذا عدت من نومي راكبا صوتها، وجدتها أشهى مـن حلـم، فأسـتقبل يـومي بسكرها. داعبت شعرها الذي اختبـأ الليـل فيـه، دسسـت أصابعي، لازغب مزروع على رقبتها مـن خلـف، فسـرت كهرباء في جسدها.. أضاءت شبقي.

رائحة الفول المعد تغازل جـوعي، فينفلـت ريقـي، وتصفر ريح في جوفي وقبل أن أقرر شيئا، تسلقتني ابنتـي الصغيرة. نامت على بطني دون أن تنطق بشـيء. داعبتهـا كي لا تستكمل نومها على جسدي، فلطمتني بكفها الصـغير محاولة أن تستبقي النوم. كانت طازجة كأن ا صنعها الآن. فكرت أن الإنسان يكبر ويشيخ، بالقدر الذي ينسحب بـه ا من جسده، فا يسكن مخلوقاته لحظة خلقها حتى إذا ولـدت، انسحب منها بعضا فبعضا، وهى تشيخ بقدر ذلك الانسحاب،

فإذا أتم ذلك، أصبحت ميتة. فابنتي تحمل من ا أكثر ممـا أحمل أنا.

ما كان لي أن أستمر في أفكاري، فقد كان شوقي إلى ابنتي - بعد أن فرقنا نوم - يمنعني مـن الاسـتمرار فـي التفكير.

حملتها إلى أعلى، لوحت بها في الهواء كي تصـحو، وهى تضحك، بصوت أعلى من أبخرة الشاي القـادم فـوق (الصينية).

قالت زوجتي: هيا يا كنزي اتركي أباك ليأكل.

وضعت كنزي قطعة خبز في طبق الفول، لم تخـرج بشيء، غير بعض الماء، وضعت الخبز المبتل بماء الفـول في فمي، وأمها تبتسم.

تركتني زوجتي لكنزي تطعمني وخرجت هي لتحضر شباك الصيد.

قلت لها: عندما أعود سأشترى سريرا لكنزي، كي تنام في الغرفة المجاورة فقد كبرت البنت وأصبحت قادرة علـى النوم بمفردها. وآن لنا ألا نخـاف مـن أصـوات أنفاسـنا الممتزجة أن توقظها. فتسألنا سؤالا لن نرد عليه أبداً.

تمتمت زوجتي: أهذا كل همك؟

قلت ملغزاً: إن لم تعجبك الفكرة.. فلن أشتريه.

صمتت برهة وردت في حياء: سأختار لها السرير من السوق حتى تعود فنشتريه سويا.

كان ثمة طائر يلقط الدود من الأرض، فداهمني سؤال مفاجئ: كيف تطعم الدود أمك الغالية؟ لأن مرضـا عضـالا أصابها. نقلتها من سرير المشفى لجوف الأرض، لأنـك لا تفهم للموت معنى.

الطائر ما زال يلقط فتات أمي، ويصعد بها للسماء - ربما سيطعمها لأولاده- أخذت أرقبه وهو يبتعد حتى اختفى في صوت زوجتي وهى تناديني. سألتني عن سبب شرودي، فقبلتها قبلة طويلة. كانت كنزي تضرب قـدمي كـي تنهـي المشهد، وتبدأ قبلتها هي.

حملتها على ذراعي قبلتني في جبيني وأنفي، أخـذت حقائبي واتجهت ناحية مرسى المراكب ـ الراقصة ـ توقفت عن السير لحظة، نظرت للخلف... الكفان الصغيران هنـاك يلوحان أعلى كتف زوجتي. يلوحان وكأنما يمسـحان عـن الهواء لوعته، فأحس بهما يمسحان قلبي.

كان ثمة ملاك ينزل من غيمة واقفة بالصدفة، ينقط في فم الصغيرة سكرا أبديا كي تحتمل اليتم، فرد جناحيه، لـ ف الصغيرة وأمها فغابا خلف نور لم ينقشع.

رفيع دونالدز

(١)

عندما تشرب صاروخين بانجو في القمـر النـازف، وتأكل (الكومبو) الذي قالت عنه الفتاة إنه أهم من الرجال في حياتها، اترك سوالفك تنحدر بك، وابتسم غير مبـال لرجـل يظهر على الشاشات فيراود أنثاك ويصنع لها فارسا غيـرك، غيرك في كل شيء.

عندما تبدأ ـ كالأبله ـ قصتك، عنـدما تسـمع مـن صديقك طريقته في حل مشكلة العالم.

- في البلد دي متقلقش خالص... كل حاجـة ملهـاش حل.

- هذا لا يجعلك تضيع نفسك هكذا.

- أنا مش باضيع... أنا بانجو.

-وكيف تنجو؟

- بانجو بالبانجو.

يضحك ملء دموعه وتصمت أنت يوما كاملا.

انظر فى عين حبيبتك، حاول ألا تلاحظ داخل عينيهـا تلك اللافتة المكتوب عليها (فقرة إعلانية). أرجوك لا تحاول إخراجها فلن تنجح. وربما أتلفت الحدقة التي اصطادتك ذات

ليلة، لقد أحكموا صنع الماركـات، وأدخلوهـا فـي عيـون الحبيبات، بحرفية أقوى من لسانك المعطوب. أنـت نفسـك مجموعة من الماركات، أحلامك، ملابسك، صوتك، يأسـك، جوعك، كلها ماركات مسجلة.. لديهم.

يحسن بك ألا تفعل شيئاً. دع العمر يمر ـ بسـلام ـ دون إنجاز، والرياح تصفر في عقلك.. قلبك.. جيبك.

دع الجارة تتلصص، المصعد يقف بك، فاتورة الهاتف تصفعك على وجهك.

(رباب التي) تدمي قلبك. محمـود يقفـز إلـى كـل قصصك، يحب حبيباتك قبلك، معك. دع كل شيء في مكانه، العلة في المعدة، القلب فـي الثلاجـة، الأحـلام فـي سـلة المهملات... ثمة أحد يريد ذلك.. تماما.

(٢)

لم تجد صديقتك المحامية عملا يناسـبها، إلا كبائعـة بمكتبة الجامعة. قلت لها إن المكتبة تقع في مكان مميز، وهذا يضمن لها الرواج، وإنها بالطبع مشغولة طوال الوقت ببيـع الأدوات الكتابية. وتصوير المستندات، لكنها قالت قبل انتهاء

كوب الفراولة إنها لا تبيع إلا عقود الزواج العرفي وبعـض الأقلام.

الحبيبة التي لم تستطع إخراج (الفقرة الإعلانية) مـن عينيها، تقول إنها قرأت (أشياء) (للشاعرة) أمل دنقـل!!!!، لكنها لم تفهم شيئا.

قل لها عن حاجبيها المرسومين بدقة، ستبتسم بحيـاء، وتنسى كل الأشياء التي لم تقرأها. ودعها فـي تلـك الليلـة واركب ميكروباصا يتحدث عن عذاب القبر. الميكروبـاص الذي يتقيأ الركاب في الوقفات المفاجئة، كان يشبه القبر فعلاً حتى في الثعبان الأقرع الذي يقوده، ويلملـم الأجـرة مـن جيوبنا. كان رجل بدين يقول لآخر بجانبي: ألابد أن يكـون رئيس الوزراء أهلاويا؟ لم أسمع الإجابة للأسف فقـد كنـت مشغولا بإطلاق التساؤلات أنا الآخر.

لماذا يقرأ الناس أخبار الحـوادث فـي المواصـلات؟ ولماذا يندلق دائما شعر من أنف السائق؟ لمـاذا لـم تجلـس جانبي فتاة جميلة في الميكروباص؟ طيلة حياتي. دفـع لـي جارى المسيحي الأجرة، فشـكرته، ومشـينا فـي طريقنـا المشترك.

قال لي إنه يستيقظ مع آذن الفجر، وقبل أن أقول لـه "اللهم قوي إيمانك" يأخذني من يدي إلى النافذة المربوط بهـا مكبر الصوت، ويسألني عن الثمن المناسب لشقته.

(٣)

لماذا لا يغشون البنزين بالنشا كي لا تتكرع سـيارتي ماء، فتقف في منتصف الطريق كلما احتجت لبعض الشتائم، وكي أتأخر على أختي الواقفة عند محل الملابـس، والتـي وعدتني أن تساعدني في شراء بدلة، تجعل الرجل يوافق دون شك، كنت أشك في ذلك طبعا، فقد كانت الفاترينات ملتهبـة، وأنا أبحث عن بدلة في مستوى الطالب المتوسـط. تبسـمت قليلاً حين سمتني البائعة الشابة عريساً. تفاءلت خيراً ودفعت نصف راتبي راضياً.

في تلك الليلة سألني أبوها: هل لعائلتك مقابر خاصة؟

وعندما قلت: "لا"، صمت عشر دقائق كاملة، كانـت كافية تماما كي أنتهي من كوب العصير وأهبط السلالم فـي سرعة عجيبة.

في الصباح التالي ذهبت إلى مكتب السـجل المـدني بالمنطقة. لم يذهلني تغير الشعار القديم الذي أصبح: "الشرطة

والشعب في خدمة الوطن" لأني كنت أنوي فعل نفس الشيء، لكنى لا أعرف لماذا ثار موظف السجل المدني إلى هذا الحد، عندما قرأ طلبي بتغيير اسمي من محمد رفيع، إلـى رفيـع دونالدز. كنت مصمما على موقفي، فأدار قـرص الهـاتف وطلب مكتب رئيس المباحث.

رفيع دونالدز ٢

(١)

دائما يبدأ ضابط المباحث وصـلة توبيخـه للمخبـر الأليف، بالضبط لحظة طرقك على الباب، البـاب المفتـوح نصف فتحة لكي ينسكب الرعب على وجهك، سور القـرآن المعلقة تهتز على إيقاع الشتائم، فتضطرب هـذه الأسـماك البريئة في حوضها المفروش بأعقاب السجائر.. تلك عادتـه في تلوين المياه.

حين تخطو خطوتك الأولى يسب الغردقة عمدا، لأنه علم من موظف السجل المدني أنك ولدت هناك، يحكي وأنت واقف على بابه، عن الراقصات في الغردقة، وكيف يتورطن في قضايا كثيرة، وأنه في إحدى رحلاته مع زوجته المدرسة - في مدرسة أجنبية - وجد أن كلهن هناك هكذا، هذا يمهـد طبعا لانهزامك العنيف أمام الضباط المسـتمعين لمغـامرات الباشا.. حيث إنك فور تفوهك باسم مـدينتك سـتكون ابـن الراقصة.

بعد وصلة الضحك المكتوم مـن هـؤلاء الكائنـات. سيمعن ضابط اللاشيء هذا في الاستخفاف بك، ويدور دورة بوليسية تعلمها على ما يبدو من هوليوود، يسألك عن وظيفة

والدتك، وعندما تقول له إنها تعمل مـديرة التعلـيم هنـاك، سيضحك، ويسألك بتعجب: تعليم؟

قل له إن وزارة التعليم فتحت مدارس للرقص الشرقي، سيعرف انك لست ساذجا، وأنك تهزأ من ألاعيبه، وعنـدما يسألك عن السبب، وراء رغبتك في تغيير اسمك، قل له إنك تحب دونالدز الطيب، الذي تبرع للأطفال هناك.. في آخـر العالم، وإنه رجل حنون، يسمح للأطباء والمحامين أن يركبوا الموتسيكلات ليوزعوا الوجبات السريعة.

سيتركك واقفا ويحكى عن مغامراتـه الغذائيـة مـع زوجته المدرسة، التي تفضل الوجبات السريعة على الوجبات البطيئة، حيث إنها مشغولة جدا. طبعا الدروس الخصوصـية التي لا تفضح رواتب وزارة الداخلية وتدفع أقسـاط العربـة الحمراء المركونة في الخاف.

الغريب أنه يعانى مثلك بما يجعلك تتعاطف معه، ليته يتعاطف معك، ولا ينفث معاناته فيك، وفى والدتك المسكينة، لماذا لا يفهم هو معاناتك؟ هل لأنهم أفهموه بعد أن دفع عشرة آلاف على أسوار الكلية، أن هذه كانت تذكرة يركـب بهـا أنفاس الناس.

لا تشرد بذهنك في حضرته فربما يغضب، فيسميك إرهابيا أو جاسوسا يتتبع موظف السجل المدني، حتى في عمله المسائي في المطعم الذي طلبت بصفاقة أن تنتسب إليه، وإن هذا الموظف المخاص شك في انتماءاتك عندما دخلت عليه غير عابئ بهواء التكييف البارد، وطلبت منه طفلا فلسطينيا مشويا.

(٢)

العالم قرية صغيرة، بفضل المواصلات، وانعدام الفرامل، وقلة الحياء. المواصلات التي جعلت الناقة تتعثر في العراق من جراء الأبراج الساقطة، فلا يسأل ا عنها عمر.

هي المواصلات التي جمعتك بصديقتك صاحبة العقود العرفية، والتي أخبرتك في لحظة تفادي الثعبان الأقرع لبالوعة فاغرة فاها - للأطفال طبعا - إن صديقك شادي مات، وعندما لم تجد دموع كافية تتناسب والفجيعة، بكت هي لأنها لن تلتقيه... حتى في الآخرة.

تعجب كما شئت دون أن تعير أي اهتمام لتكنولوجيا البالوعات المصممة بها الطرق، والتي بعثرت أحشاءك

فضاع الجوع منها. وإذا أخبرتك بأنه كان يبحث عـن ثمـن شبكتها، وأنه مات من أجل ذلك، اقفز بها مـن هـذا القبـر الطائر، واذهب للنيل كي يشهد أن شابا من أبنائه لـم يجـد سبيلا للزواج من حبيبته غير أن يعبد دكتور الفلسفة القـادم من ألمانيا، الفاحش الثراء والخداع نظير ألفـي جنيـه فـي الشهر. لا تفغر فاك كالأبله أمام النيل، ألم تسمع بمن عبـدوا الشيطان في بلادك، الشيطان لم يدفع لهـم، لكـن الـدكتور يسري كان يدفع. يملي طقوس عبادته على شادي ويرزقـه ثمن شقة، أعرفت سر البانجو والبكاء الفجائي عنـدما يعلـو صوت الأذان، وعندما أكمل ثمن عش الزوجيـة مـن هـذا الطريق، فتح بابه وجال بعينيه في الغرف.

كانت الوحشة تصفر في الـريح والظـلام، فـألقى التليفون المحمول على البلاط وصرخ من لحائـه، تجمـدت الحبيبة على الطرف الآخر وبكت، لكنها لم تستطع بصوتها الدافئ أن توقف طقوس الموت المحرم.

كان مشروخًا حتى العظم.. محزونًا.. ملعونًا، فشنق نفسه على النافذة المطلة على نفـس نيلـك هـذا الشـاهد، الصامت، الكسول.

(٣)

لماذا لم يختر صديقك مدرسة يحبها؟ كي تـدفع عنـه الدروس الخصوصية براثن الإله يسري، وأحب محاميـة لا تملك إلا بيع العقود العرفية، لماذا لم تشتر هي عقدا لنفسـها وتزوجته؟.. بدلا من النافذة.

لماذا يحضر يسري الجنازة؟ ويسلم على الأب وينظر لعلامة الصلاة على جبينه، وعندما تسأله مستهزئا ومهلوسا، بعد نزول صديقك جوف الظلام: هل ستدخله جنتك؟ يبتسـم في عظمة إله إغريقي ويقول: بالطبع لا.. فلم يكن مخلصـا في العبادة.

لا تتعدى عليه بالضرب، لأنه يعرف وزير الداخليـة، وربما سلط عليك ضابط المباحث الذي ناداك من بين ألاعيبه بابن الراقصة، لن تنسى هذا ما حييت، حتـى وإن نجحـت محاولتك البلهاء لتغيير اسمك.

قلت لك في القصة السابقة "دع كل شـيء يمـر" ولا تحاول أن تفعل شيئا.. فقد مات شادي.

ستظل فيروز تسأل في أغنيتها، التي أهديتها لصديقتك المحزونة، والتي تجيد الاختفاء.. منك.. ومـن الـذكريات،

وتهاتفك على غير موعد، لتخبرك أن ألمانيا جميلـة، وشـقة هناك لا تتطلب أن تكفر، وأنها عرفـت الآن فقـط، للحيـاة معنى.

ستكمل دراستها، منتظرة أن تلد إلها صغيرا، لا يكره المواصلات ولا ينجو بالبانجو، لا يعرف العقود العرفية، ولا يخجل من النيل لو قبل حبيبته في خدها.

سيرث المولود الطقوس من أبيه، ويرضع الفلسفة من فمه، وسييسر له والده ما تيسر من ألمانيا.. فهو.. يسري.

كامب داليا

(١)

لـم أكن أبدا خائنا.. كانت تلك صرختي الأخيرة فـي تلك الليلة العجفاء، التي زحفت إلى عمري بلا سيقان. لسـت أدري ما الذي اعتراني عندما سمعته يقول إنه على اسـتعداد أن يذهب إلى آخر العالم، وقال إنها سـوف تـدهش عنـدما تسمعه. اندهشت أعضائي السفلية فعلا بطريقة غير معهودة، واندهش حذائي الذي لم يعرف الطـرق العرجـاء. كـان لا يعرف إلا الطرق المستقيمة، لكني لست أدري كيف سـرت عباراته من أذني مباشرة إلى مواقع الدهشة.

ترى لماذا تسكن زليخة دائما على مقربة منك؟ ولماذا تتجلى موازية للدهشة والسقوط؟ نظرت إلى حذائي المندهش لماذا لم يذهب وراءها وهي التي تمارس المراودة بحرفيـة ودأب غريبين، فتوفر علي عناء الإيقاع. كان إيقاع الموسيقى المنسكبة من التلفاز عاليا، تنبهت معه أن السهرة قد بدأت مع فيلم جديد كان اسمه "الهلفوت". جلست زوجتي ببلاهة عادية تقشر الكوسة، منفرجة الأسارير بدون سبب. ربما لأن ممثلها المفضل هو بطل الفيلم.

كنت مشغولا بترتيب ذاكرتي.. هذه ذكريـات باليـة يحسن أن أتخلص منها، تلك ذكريات مهمة يجب أن أصونها في مكان آمن حتى لا يبتلعها النسيان..... كيف وصلت هذه الحشرات لهذه البقعة من الذاكرة؟........ زليخة ما الذي أتى بك داخل ذاكرتي؟.

رن جرس الباب، طلبت مني زوجتي أن أذهـب أنـا فهي مشغولة مع الهلفوت. فتحت الباب، يا للعجب، إنها هي تلك التي لا تهدأ.

بادرتها: إذا كانت ظروف عمل زوجك تقضي بـأن يكون خارج البيت طوال اليوم، فيحسن بك أن تحترمي ذلـك ولا تدعي الرجال يزورونك في غيابه.

أدركت بعد ذلك كم كان منطقي ساذجا ومثاليـا فقـد ردت على عباراتي التي كنت أظنها حارقة بهدوء عجيـب، قالت:

- هل تحب المعسكرات؟

-......؟!

- في المعسكر تخلع هموم الأيـام تسـتمتع بوقتـك. ببساطة أنا أمتلك معسكرا، ولا تعنيني تلك التعقيـدات التـي تديرون بها حياتكم.

انبجس العرق من كل مسامي في آن، قلت:

- واضح أن هناك فارقا شاسعا بينك وبين أم مريم.

قلت ذلك محاولا استثارتها، فـأم مـريم كانـت هـي الزوجة الأولى لزوجها ثم أردفت:

- كانت أم مريم سيدة فاضلة يشهد لها كل..

قاطعتني

- لأنها فاضلة طردها زوجها وآتى بزوجـة شـابة متفتحة.

-...!!!

- أنا أعرف أن كل الجيران يكرهـونني ويتهمـونني أنني سبب عذابات أم مريم... لكن هذا الأمر لا يهمني.

- على كل حال لماذا أتيت إلى هنا؟

- كي أدير معك هذا الحوار، فأنا أعلـم أن زوجتـك مشغولة مع الهلفوت.

استدارت للخلف في حركة لا أراهـا إلا فـي بعـض العروض، وأخذت تنزل السلم فـي درايـة كاملـة لكيفيـة الانسحاب لداخلك وخارجك في آن. أغلقت الباب لكنـي مـا عدت أدري أأنا أغلقته فعلا أم فتحته؟

كانت بهية لا تزال مشغولة بفيلمهـا عنـدما مـررت بجانبها لأشعل سيجارتي بالشرفة.

(٢)

كانت بهية اسما وسمتا عندما تزوجتهـا، والآن هـي تختبئ وراء رائحة البصل وخلف الثرثرات ووهم التضحيات التي لا تنتهي.

في الأيام التالية قابلتني داليا على السلم مرارا، وكانت دائما تمارس الإيحاء، الذي ما يلبث أن يتحول إلـى رحلـة صيد. رأيتها بعيني ذات مرة وهي تنصب لـي فخـا تحـت الرداء. كانت مواقفي الرافضة صخرة لا أمل في زحزحتها، لكنني حين سمعته في تلك الليلة، قررت أن الدور علي لكـي أذهب إلى آخر العالم. كنت واقفا في الشرفة عندما رأيت ليلة عجفاء تأتى من صوب الغروب بلا سيقان.. زاحفـة علـي

الأرض، محدثة صوتًا يشبه الفحيح. أخذت تقترب رويدا حتى ابتلعت كل شيء.

في تلك الليلة احتدمت معركة التضحيات المعتادة بيني وبين زوجتي. جاءت داليا لتصلح بيننا، أو هكذا صورت الأمر، لكنى كنت عنيدا وخرجت من الدار متشنجا، معلنا أنني ذاهب إلى الجحيم. لم تستطع زوجتي أن تمنعني من الخروج. وقتها هرولت داليا ورائي مرددة عبارات التهدئة العادية لكنها عندما لحقت بي دست في يدي مفتاح شقتها وتمتمت:

- ستجد كوبا من عصير الليمون معدا لك..... في المعسكر.

وأردفت عبارتها بضحكة مكتومة طارت من شفتيها ودخلت تحت ملابسي. كان المفتاح في قبضتي وأنا أنحدر على الدرج، أنفاسي المتلاحقة تصدر صوتا واضحا، نزلت إلى الدور الثاني، نظرت مرتابا إلى الشقة المقابلة. كان صوت التلفاز عاليا سمعته يقول:

- أتيت إلى هنا بقدم ثابتة.

نظرت إلى قدمي المرتعشتين، لكني أدرت المفتاح في بابها ودخلت. كانت الشقة خالية حتى مـن كـوب الليمون كل ما وجدته طبق من الزيتون الأخضر اليابس. مررت بالحمام خطر لي أن أدخل وآخذ حماما علي أهدأ. عندما انتهيت من حمامي وقبل أن أرتدي ملابسي فـتح الباب.. دخلت داليا ، أردت أن أستتر بشيء، لكنها قالت ضاحكة: أنت جئت إلى هنا فلا داعي للتستر.

قدمت لي المنشفة.. أخذت تتأملني وأنا أجفف جسدي. قالت:

- لماذا تجاهلت دعواتي في السابق.
- ها أنا أتيت.
- بقدم ثابتة؟

نظرت إلى قدمي كانتا ثابتتين هذه المرة.

قالت: لا بأس دعنا نعقد اتفاقًا... انتظر هنا قليلا حتى أعد كل شيء. مرت برهة ثقيلة إلى أن سـمعتها بصـوتها المرتفع تقول: أنا في الانتظار. ترددت قليلا ثم خرجت على أطراف أنفاسي أيقظتني شهقة عالية وإذا بزوجتـي تتوسـط الشقة.

اكسر الناي.. وغني

مكاشفة

عندما شاهدت أبو غريب، وضعت سما في دواتي، شربت بعضه وكتبت بالبعض الآخر. فاحذروني واقرءوا وصيتي... إن استطعتم...

(١)

أن تنتقم من ذاتك وتدللها في نفس الوقت، هذا لا يحدث إلا بحضرة الفودكا العظيمة. تسكب النار في الحلق مباشرة، فيتعرج العالم، وتتكور الذكرى في قبضة يدك، لا تفتحهـا، كي لا تتحول أصابعك إلى أشجار، يتربص أعداؤك خلفهـا. تتسلق الدموع صدرك المسطر بالجراح وقـد تتجمـع فـي أنفك.. لا عينيك ولا جبينك.

البار.. هذا الذي به كل مقومات الوطن، والفودكا أنثـى كل الرجال المشردين غير أنك تحكـي لهـا هزائمـك دون خوف، ودون جدوى. استطاع الحاكم على مر العصـور أن ينفيك خارج الخارطة في جزيرة.. في قبر أو بالوعـة ومـا استطاع أن ينفيك خارج الزمن.. إلا الآن.. الآن المراوغ.

جلست هناك بقعر العالم والخمر، منفيا في ذاتي. عنـدما يصبح رداؤك هو وطنك، ستكون سيد الخيبة مثلـي. وحـده القدر هو الذي أفزعني، عندما رأيت وجها أعرفه. أصدفة أم هلوسة أن ألتقيه؟.. ألتقيه هو بالذات. أعوام مـرت ووجهـه الجامد مثل المومياوات يمعن في الغياب والحضور معا.

ما الذي يمكن أن أقوله للرجل، الذي ظللت عشرين عاما ألاحقه كظله. ماذا لو أخبرته؟

هل سينهار مثلي؟ ما هذه الرغبة الدنسة في رؤيـة وقـع الخبر على ملامحه. أأخبره أن زوجته ضاجعت المهمشـين عشرة أعوام قبل الحجاب؟

بينما هو يسحقهم بمنصبه وبقراراتـه، يعـب أرزاقهـم ويضيق الخناق عليهم، حتى إذا جاء الليل، فتحـت زوجتـه أزرار قميصها لهم. وكأنه قواد خفي يسرق منهم ما يسرقونه منه. آه عندما يكون عليك أن تراقب أحـدا دائمـا يصـيبك الرعب.

لماذا المهمشين أنفسهم؟ ولماذا أنت وهو؟

كفى استفهاما يا فودكا.

الرجل لم يكن عميلا، وأغلقت صفحات تلك العملية، التي أسميناها البيات الشتوي الطويل ، ولم نثبت أنه خائن علـى مر عشرين شتاء.

فتحت خطاباته كلها، سجلت مكالماتـه، ضـاجعت كـل اللواتي ضاجعهن، كي أشعر بكل ما يشعر، أكلت الذي أكل، لبست ما لبس، لكنى ما سرقت الذي سرق، ولم أقتل من قتل.

خان ا وزوجته، وما استطعنا أن نثبت عليه الخيانـة، رغم الشرائط والصور. تضخمت حسابات بنوكه، وتعـددت مشاريعه، وظللت أرقبه منذ أن زار أحد الأعداء في بيتـه، وعندما خرج متخفيا، بدأت عملية البيات الشتوي الطويـل، واستمرت أعواما لم نثبت فيها أنه يتخابر لحساب أحد فأنهينا العملية وظل هاجسا داخليا، لا أستطيع تجاهله أن هذا الرجل كان جاسوسا. لمن؟ لا أعرف. ولا كيف، كل ما علمته أنـه كان جاسوسا لدى الشيطان.

(٢)

وحدها المفاجأة جعلتني أستعيد وعي المنفى، قمـت مـن مقعدي، اتجهت نحوه، صافحته، لاحظت أنـه تخلـى عـن حذره.. قلت:

- أهلا بك في الوحل.

كنت أقصد المنفى، لكن الليل الجائع والخمـر المعتـق جعلاها هكذا.

ابتسم وقال: أين أيامك؟

كان يقصد نجومك فقد كان ينظر إلى أكتافي.

لم أرد على نظراته، بل دعوته لاحتساء كأس من الغيبوبة المدهشة. تبادلنا الحديث عن المنفـى.. والمنفـى الآخـر، ضحكت معه وعليه. كان الضحك ينغرس تحت اللسان مثـل الخناجر والكراهية. قلت له إن الأموال التي سرقها هي مـن حقه فعلا وإن المهمشين أخذوا ثمن ذلك من لحم زوجته، كان هادئا مثل ثلج الكئوس، ولم يستفزه سؤالي الحقير:

- لماذا يرسمون الشيطان بقرنين؟

قال وثلج العالم في صوته:

- لا أعلم... فما كنت يوما شيطانا ولا رساما.

بادرته:

- لكن كنت وزيرا.

ضحكنا بهلوسة وسعال، وبعد عدة ثوانٍ وكراهية قال:

- بالطبع كنت جاسوسا أيها الأبله.

دق قلبي كما لم يدق، اليوم أسمعها دون أجهزة تنصـت، دون أن أثبتها عليك، ولكن قلها.. قلها من أجلي أنا. علنـي أسترد نفسي.. لا نجومي ولا منصبي. قلها في المنفى قلهـا في نهايات العمر.

قلت في تحد وحزم:

- ما هي المهمة ؟.. كيف كانت ؟ كيف خدعتنا عشـرين عاما، وبمن كنت تتصل؟

قال:

- لم أكن أتصل بأحد يا صاحب البيات الشتوي الطويـل، كانت مهمتي.. أن أتقلد المناصب.. فقط.

صمت برهة، وعندما نظرت جيدا إلى هيكلـه العظمـى استطرد:

- وعند الاختيار.. أختار أسوء المسئولين وأجهلهم وأسوأ الحلول لأسوأ المشروعات.. هكذا وبمنتهى البساطة.

أشعل سيجارته وأعصابي.

قال:

- كانت لعبة ممتعة أن تختار الأسوء في كل شيء، وأن تضع السوس بنفسك في العظام.

قلت مكملا حديثه:

- وكانوا يزيدون من رصيد حساباتك في الخارج بقـدر العراقيل التي تصنعها.

هز رأسه موافقا وقد وضع كفه على يسـار جبينـه فـي وضع التحية العسكرية.

قال: هكذا... لا حبر سري ولا أجهزة اتصال.

كان رأسي في منتصف الغليان وعلى يسار الجنون.

صمت طويلا ثم قال:

- أعرفت كم أنك تشبهني؟

قلت ما بين غيظي وأسناني:

- كيف؟

قال مبتسما: زوجتي تحجبت بعد ذلك.. وعفـا ا عمـا سلف، وأنا أيضا عفوت، لكن بلادك لم تتحجـب بعـد... ولا أنت تستطيع أن تعفو.

لم أستطع ألا أفعلها: ركلة من قدمي في وجهه، وجلسـة في سجن الولاية.. لأنني تعديت على رجل شريف.

الوصية

ضع علامة خطأ (×) في كل مكان تذهبه، وعلامة صح (✓) على شاهد قبرك أو جواز سفرك.. أو ذبحة صدرك.

التاريخ مقابل الجرجير

(١)

لا تشك أبدا أن هناك علاقة ما بين إخفاقـك ليلـة الخميس المقدس، وبين كتب التاريخ التي تمـلأ البيـت. لا تحمل التاريخ وكتبه أكثر من اللازم. فما دخل الكتب بفشلك الذريع في خميسك المهزوم، ترى لماذا كان يسمي القـدماء الجيش بالخميس، أكانوا يعرفون مسبقا أنك سـوف تختـار الخميس لمعاركك الصغيرة؟ وأنك ستهوي علـى أطرافـك الخمس، كل خميس مثل الجيوش التي تسلم عواصمها.

إنك تجنح دائما للأسباب الخزعبلية، والملاحظـات غيـر العادية ولذلك تزين لك الاعتقاد بأنك ما عدت قادرا على أداء واجباتك الزوجية، منذ قراءتك للتاريخ مـؤخرا. ويـا لدقـة خزعبلاتك، التي فرضت أن عبارة واحدة قرأتها أفزعتـك، وسحبت من جسدك البركة. أقسم إنني كلمـا طالعـت تلـك العبارة، كانت تخرج لي لسانها، وأحيانا كانت تخـرج مـن كتب التاريخ، وتمشي على ساقين من نار تحملق فينـا فـي الظلام، وتقهقه ملء حروفها.

لا تصحو زوجتي على قهقهاتها العالية، بل تنام ملء جفونها، وأصحو أنا ملء أرقي. عبارة مسكونة بأرواح من باعونا، تتردد في رأسي مثل ناقوس كنيسة. "ثم توالت على البلاد عصور ضعف وانحطاط، كثرت فيها الخيانات وتوج الإخفاق كل نشاط. وتولى أمر البلاد حكام ضعاف فشاع الفساد واستشرى الفقر...".

ما لهذه العبارة والتأثير على وظائفك الحيوية. ثم إن العبارة تتحدث عن عصور مضت، وحتى إن كانت تصلح لعصرك هذا، فأنت لست حاكما كي تبرر ضعفك. أنت لا تستطيع حتى إصدار الأوامر لبواب العمارة التي تسكنها، لأن محفظته تورمت، بالشكل الذي يسمح لك بالتخيل، أنه قادر على أن يشترى العمارة بسكانها، من جراء السمسرة، التي تعلمها من رجال الدولة، وشرطي المرور.

ناهيك عن مرتبات يتقاضاها كي يسكت عن فضائح السكان - ترى لماذا يتقاضى هو رواتب كي يصمت، وتداس أنت بالأقدام لتسكت. أرجوك كف عن التخيل بأن بواب العمارة، يتمتع بحرية أكثر منك، وثقافة أكثر منك،

لأنك سمعته في عصر يوم يتساءل عن الجنيه العائم ، الذي استطاع أن يتفوق على الدولار في فن العوم.

الدولار القادر على كل شيء.

مصمص الرجل شفتيه وهو يسألك كمثقف: (تقرأ أخبار الكرة، وحظك اليوم وتشاهد من سيربح المليون).

– يعنى يا بيه.. وزن الجنيه، زي وزن الدولار، ليه ده يعوم ودكهه لع؟

لا تتعجب من زوجته الواقفة خلفه، سعيدة بفلسفة زوجها، الذي استطاع أن يحرج البـيـه. كانت سعيدة، بالشكل الذي يوحي إليك، أنه يؤدى واجباته الزوجية على أكمـل وجـه، ربما لأنه لم يسمع أن بغداد قد سقطت.

كان موقفك مخزيا، وأنت لا ترد عنـه حيرتـه، لأنـك مشغول بهزائمك، التي لا يفسرها ضعف الحكـام. ضـعف الحكام مختلف عن ضعفك، هم قادرون على إنجـاب ورثـة للبلاد... سيدرسون في علم (الفيزياء الدينية)، أن وحدة قياس الميراث هي النسمة، وللذكر مثل حظ الأنثيـين، فـي عـدد المحافظات والمرافق.

أما أنت، فادفع نصف راتبك للطبيب كي لا يذيع سـرك، ولا تحترق غيظا، إذا انفجر ضحكا على ملاحظاتك البلهاء، رغم تأكيدك له أن كتب التاريخ هي السبب، فهـو لا يعنيـه ذلك، ولا تلك العبارة المتكررة في كل العصـور، إيـاك أن تخبره أنك رأيت العبارة تسير على قـدمين، وأنهـا كانـت تتلصص على أعضائك حتى إن قلت له إنك قمـت بعمليـة تمشيط واسعة لإخلاء البيت من كتب التاريخ، وإنك اختـرت يوم الأربعاء كي لا يذكرك الخميس بـالجيوش المهزومـة، وأنه كان يوم رائع، فرحت به زوجتك، وأخذت ترقص حتى الصباح، ولأنها تعلمت من أسيادها إطلاق المسميات، علـى كل الأحداث، أطلقت عليه

حرير الأربعاء ، إشارة إلى نوع الملابس المسـتخدمة، حتى أنت كنت متأثرا بما قرأت من تاريخ مزور، فأطلقـت على هذه الموقعة (أربعاء الحسم). قلت له إنني قمـت بعـدة تجارب، تثبت أن التاريخ هو السبب، وأن تلك الكتب مسكونة بالإخفاق، لكنه لم يصدقني، وأشار علي باستشارة أخصـائي نفسي. عد إلى البيت دون التفكير في زيارة الصيدلية، التـي أصبح من الأجدى لو تحول راتبك عليها، بدلا من البنك.

لا تندهش عندما تكتشف أن زوجتك أكثر واقعية منـك، فهي لا فكر في سبب المشكلة، ولا يعنيها التاريخ في شيء، هي تفكر في الحل. كان الحل أخضر بأعواد قصيرة، دسـت زوجتي حزمة من الجرجير في فمي، وهى تهدهـدني مثـل الأطفال. وتدعوني أن أنسى ما فعلت تلك الكتـب الشـريرة بتماسكنا الأسري أكدت لـي أن اليـوم سـيكون جرجيـر الأربعاء.

لا تقاوم وسر في ركبها، وبعد انتهاء اليـوم سـتقر أن الجرجير من فاكهة الجنة، وأنك تريد لو تزرعه على جلدك. وإذا طالعتك زوجتك بخبر في الجريدة يقول إن يوم الخميس سيكون عطلة رسمية في بعض المصالح، وتمتمت هي بخبث في أذنك:

أرأيت أن الحكومة تبارك خطانا، فلتحمد ا على تلـك الحكومة الحانية، التي تعرف ما بنفسك من أمنيات.. تعرفها فقط.

ولأني استكشافي بطبعي، منذ تلك الرحلات، التي أخذني فيها جدي لاكتشاف الرخام في الجبال المحيطـة بمـدينتنا،

قررت أن أبحث عن الحقيقة، والسر وراء كتـب التـاريخ، والتاريخ بالذات.

(٢)

أحضرت كتابا للتاريخ، وضعته في مكان سري في غرفة نومي. كان بالمصادفة - وأكرر بالمصادفة فقط - عن تاريخ الحروب الصليبية. لم أخبر زوجتي بهذه المعصية، وترقبت كيف ستسير الليلة، ولمن الغلبة اليوم التاريخ أم الجرجيـر؟ أيقظتني زوجتي من شرودي القلق، قالت في دلال وحسـم: هل أكلت الجرجير؟

أومأت برأسي مثل الأطفال. وذهبت معها فـي طواعيـة مطلقة.

الحقيقة، ما عندي وصف لهذا اليوم المروع كان الفشل دامغا، كان

مثل أربعاء يهوذا.

انتفضت زوجتي، تسب بـائع الخضـروات المـراوغ، فالجرجير لم يكن طازجا ككل أربعاء، وسـببت أنـا كتـاب التاريخ المخبوء تحت المرتبة. قالت في تحد:

- هل قرأت شيئا اليوم؟

تلعثمت كمذنب وقلت:

- ربما لم يكن ذلك جرجيرا... كـان لـه طعـم يشـبه البرسيم.

ورغم تلك التهديدات التي صعدت بها زوجتي لهجتها في مخاطبتي، إلا أنى لم أكف عن التجريب، محاولا دفع عجلـة الحياة الزوجية، والعجيب أن النتائج كانت محيرة. مرات كان تأثير الجرجير أقوى، ومرات كان للتاريخ سطوته الفاشلة.

وحتى هذه اللحظة وأنا أكتب لكم سـيرتي، ولا ألاحـظ حديقة الجرجير، التي وضعتها لـي زوجتـي عنـوة علـى المكتب.. لست أدري من أقوى التاريخ أم الجرجير؟

أسطورة ابن بحر

(١)

أنــا الذي هتكت بكارة أمي برأسي المدبب، صرخت لما اكتشفت أن قابلتي سماء واسعة ومهدي صخر، التقيت بـدمع والدتي غزيرا غزيرا يساقط على الرمل. الحبل السري يـئن عندما قطعته بحافة سكينية من صدف.

هواء حارق تسلل داخل رئتي، واليود - فعـل أبـي - منثور حولنا. رفعت أمي صخرة إلى أعلى، ظننتها تحجـب عني ضوء الشمس، حدقت في عيني مليا، كنت عبد ا الذي لم يتكلم.. بل ابتسم، فانهارت وضمتني.

عرفت أنها.. أجلت قتلى.

جاء العصر الثقيل، وفي صحن الدار ثمة عائلـة تختـار جريمتها بعناية. مربوطة أمي إلى جذع نخلـة تهتـز مـع السياط، فلا يساقط منها شيء.

قالت: ابن بحر.

لطمها جدي وقال: بل عشقت الفتى.

قالت والحروف باكية في فمها: أبوه بحر.

تمتم جدي: فهو أولى.

أخذني جدي ملفوفا، لم ينظر إلي، هربت نظراته منه ومني، سار بخطى واسعة إلى الشط، وأنفاسه تحرق وجه الشمس. كان يستأذن ا أن يقتل، وعندما ظن أن ا أجابه في الغروب، رماني، وفر كالصبيان. ضحكت من الذي ردني إلى أبي، وظن أنه يقتلني. تابعته بعيني الوليدتين، فلما اختفى وضعت إصبعي في فمي، لكن حليبها لم ينسب.. فتعجبت، وفي صحن الدار كان حبيبها يصدق كلامها.

يقول: آمنت بالبحر الذي وهب الغلام.

لحس النار مرات، ومزقوا له جلده كي يكذبها، وما فعل، ولما لم يجدوا له خطيئة، أبعدوه عن الديار، فصامت أمي عن كل شيء.

(٢)

قال لي الرجل لما رآني أهم بالرحيل: أترحل عنا يا رب؟

قلت: ما أنا بربك.

قال: وجدناك تخرج من فم الحوت المقدس، الذي رماك على شطنا فسجدنا خاشعين.

قلت: أكنت آكل الطعام؟

قال: بلى.

قلت: فأنا بشر مثلك.

صمت قليلا ثم قال: وهب أنك بشر ونزلت على قوم عبدوك ونعموك، فعشت مكرما؟

قلت: بل أنت الذي جعلتهم يفعلون، أنت كاهنهم وبك يأتمرون.

تفرس في وجهي واستطرد: ما الذي ينقصك يا رب لترحل عمن عبدوك سنين؟

قلت: أمي.

قال: ألأمر.. نأتيك بها.

قلت: هي لا تجئ بل يذهب لها.

قال: أتستقيل يا رب؟

فأشحت عنه وعن قومه الجاهلين. ركبت الطوف الذي صنعته لنفسي.

ومن خلفي سمعته يسخر: هلا ناديت الحوت؟ وكان أناس كثيرون حوله، قال لهم لما ابتعدت: إني أمشى على الماء. فخروا فوق اليابسة.

قال لي البحر: مرحى مرحى.. بني الذي هو مني.

ولما قص علي وعلمني الأسرار كلها..

قال: اذهب لتخاص أمك ولك مني برهان إذا اشتدوا عليك.

فلما ذهبت للقرية التي تدعى غارب وأنا ابن عشر سنين، كانت أمي يابسة كنخلتها، فلما قبلت قدميها ثلاثة أيام وليلة، خرجت إلى الشعاب، ظللت عامين أبحث لها عن محبوبها، سألت الطير والنمل وابن أوي، وما دلني عليه أحد. ولما لاقيته إذ لاقيته في حضن الجبل، كان مريضا نحيلا.

جلست إليه في ظل صبار وخروع

قلت: ما بك؟

قال: شوق.

قلت: أمرت أن أحملك إلى أهلك.

قال: طردوني لما صدقت فتاتي.

قلت: هكذا قال البحر.

غمست جسده في الموضع الذي رماني جدي فيه - وما رمى - فخرج من الماء صحيحا.. وركب الحصان.

جدلت شعر أمي بيدي، عطرت جسدها بالزعفران وغسلت قدميها بالورد. كان فتاها واقفا تحت النجوم مباشرة، وجدي والناس باهتون.

قلت للفتى: أمازلت تصدقها؟

قال: بلى يا بن بحر.

قلت: خذها فمهرها تصديقها.

رفعها إليه، وسواها على ظهر مهرة، وذهب.

هجم علي الناس وهموا بدق عنقي.

قالوا: من أنت؟

قلت: ابن بحر.

قالوا: كذبت.

قلت: وهتكت بكارة والدتي برأسي.

قالوا: صبأت.

قلت: وزوجتها من تحب.

فرفعوا الرماح، قال جدي: هات برهانك.. نصدق أن أباك بحر.

ضربت بطن الأرض بعصا كانت لي، فتفتحت حفرة عظيمة.

تمتمت في سرى: يا خالق هذا الكون وخالقي، أعنّي على القوم الظالمين.

ولما أشرت إلى الحفرة بإصبعي – هذا الذي لـم يسـقني حليبه – انساب موج من يدي، الحفرة امتلأت من ماء أبـي الذي هو في جسدي

قالوا: ساحر ، وكادوا يقتلوني.

لولا أنى جريت صوب البحر.. لكنى لم أمش على المـاء ولا وهبتني الأسماك نفسها.

سيرة ملهاة

(١)

وصلت إلى منزلي في الدقيقـة الخامسـة قبـل الإغماء. كنت مرهقا كعائد من حرب، كان بـارود الزحـام ملتصقا بجسدي وأنفاسي. سرنا في طرق وعرة حقا وعبرنا بحيرات من الماء السائب. صعدت إلى بيتنـا فـي طابقـه الثالث، دلفت داخل الشقة وأغلقت الباب في وجـه أعـدائي، بحثا عن بعض السلام في بيتنا الرطب، وطعام أمي الساخن دائما. جففت جسدي من الماء الدافئ، الذي غسـل لحـائي، وأسقط الإرهاق وبارود الشارع الأسود عن جسدي.

أخذت أتأمل صوت البائعين والمنادين وهو ينساب مـع الماء، ويسقط في البالوعة، بعدها تحـررت مـن أثقـالي، وفرغت لمقابلة هامة مع طعام أمي الطيبـة. سـألتني عمـا فعلت، فأفهمتها أنى أديت ما علي من اختبارات ورشـاوى، ولم يتبق إلا أن أتجرع كوب الصبر المعهود. أفهمتها أيضـا أن وظيفة مذيع في إحدى القنوات التلفزيونية واسعة الصيت ليست بالأمر اليسير، وإنما تخضـع لمعـايير: الصـمت –

المداهنة – المجاملات، وأشياء أخرى، فغرت أمي فاها عند أشياء أخرى.

قالت: قل لهم إن أباك مات في الدفاع عنهم وإن سنوات الحداد والوحدة، لا يجلوها إلا أن تراك أمك ساطعا على شاشات التلفزيون.

قلت مسكتا إياها: هم يعرفون ذلك.. وما زالوا يتذكرون. ودخلت إلى غرفتي شاعرا أن نقطة دماء كبيرة سقطت من قلبي إلى أحشائي. سمعت دعوات أمي الطيبة تتسلل إلى أذني وأنا أرد الباب، تلك الدعوات التي طالما ظننت أنها لا تذهب أبعد من سقف شقتنا، تعوذت با من خواطري الشريرة ودلفت إلى فراشي أبحث عن سلام شامل.

كان كابوسا مزعجا حقا، رأيتني وكأنني مسجون في سجن مهيب الهيئة، جدران صفراء قاتمة، مشاعل متناثرة هنا وهناك، أصوات أنين تحاصر الهواء. أمسكت بالقضبان الغليظة لزنزانتي فتبينت ممرات طويلة متعرجة وزنازين مقابلة بها أشباح آدميين.. أشباح عصافير.. أشباح أشباح. أدرت رأسي محاولا رؤية الزنازين المجاورة لي، فلم أتبين غير ألسنة طويلة مدلاة خارج القضبان تنقط دما. كان

الرعب والعجب هم صاحبي السجن. يا هولي هنـاك ألسـنة أخرى ملقاة على الأرض يدوسـها الحـراس فـي جيئـتهم وروحتهم. عندما وجدت أحد الألسنة المقطوعة قريـب مـن زنزانتي غار لساني في حلقي حتى كدت لا أستشـعره بـين فكي.

انحنيت على الأرض مخرجا يدي من بـين القضـبان، محاولا إبعاده عن الأقدام التي لا ترحم، لكنه كان أبعد مـن طول ذراعي قليلا، حاولت إخراج كتفي حتى.. حتى داسـه أحد الحراس بقدمه الغاشمة، فصرخ اللسان صرخة لا تنسى، انفجر منه سائل أخضر بفعل الموت انتشر في كـل مكـان حتى أن بعضه أصاب وجهي، وانساب حتى شفتي. وجـدت له طعم الدمع الذي أعرفه جيدا.

مسحت وجهي من آثاره التي غشيت عيني، كـاد الغـيظ يقتلني لأني لم أستطع إنقاذه. هززت القضبان بعنف في يأس وتحد، اكتشفت أن القضبان ليست من الصلب، يا للعجب إنها مصنوعة من ورق الجرائد، لكنها صلبة إلى أقصى درجـة وأقساها. هنيهة أخرى قضيتها مع صاحبي السـجن، تلفـت بعدها حولي فوجدت كل الأشياء وقد تبدلت.

الأرضية مغطاة بـبلاط مصـقول، الحـوائط منتظمـة ومضاءة بأنوار كهربائية لا ألسنة على الأرض، وقعت عيني على جهاز تليفزيون موجود في زنزانتي، وقبـل أن أتوجـه إليه ناداني هاتف من ورائي، التفت إليه لأجده حـارس فـي زي عصري. قادني إلى ممر طويل مضاء بزرقـة خافتـة، كانت الحوائط تنقبض وتنفرج كأنها تتنفس.

رأيت أناسا يمشون في عكـس اتجاهنـا يلبسـون زيـا عسكريا وفرعونيا وعربيا تتدلى سيوفهم من جوانبهم. نظـر أحدهم من فوق فرسه داخل عيني، كان سيفه ينقط كراهيـة على الأرضية المصقولة. تبعت الرجل وكل بصيلات شعري الناشبة في رأسي تحولت إلى علامات استفهام (؟؟؟).. فـي أي عصر أنا ؟

أين أمي الطيبة؟ أتراها مازالت تحلـم بحصـولي علـى وظيفة مذيع؟ أمسجون أنا لأني دفعت رشاوى محمودة؟ هي عرف التقدم الوظيفي. وصلنا إلى قاعة واسعة مظلمة تماما، كان الخوف يجرى في عروقي الفارغة.

قال الرجل في صوت معدني غريب: اتبع بقعة الضـوء هذه التي على الأرض، ستتحرك إلى نقطة معينة. لم أفهـم

ولكني فعلت، ذهبت داخل البقعة المتكونة بفعل نور قادم من السقف، حاولت أن أتبين مصدر النور لكنـه كـان سـاطعا أغشى عيني. بدأت البقعة بالتحرك غائرة في قلـب القاعـة تبعتها حتى توقفت فوجدت مقعدا جلست عليه.

أضاءت شاشة كبيرة مقابلة لمقعدي عليها بعض كلمـات التنبيه. لحظات وظهر رجل فـي زيـه العسـكري، كانـت ملامحه الصارمة جديدة على ذاكرتي. قال موجهـا كلامـه إلي: اسمع يا... لا يهم اسمك، - تعرف عمل مهرج الملك؟

قلت بصوت خافت: مهرج الملك! أومأت برأسي إيمـاءة خفيفة.

فبادرني: ماذا تعرف عنه؟

بحثت عن لساني فلم أجد غير جسم مهترئ يرقد كالفـأر المذعور في عمق حلقي مرتجفا.

قال في عذوبة مستبعدة: وظيفة مهرج الملك المعروفة منذ قدم التاريخ مازلت باقية. هي الآن معروفـه باسـم مهـرج الشعب لكنها نفس الفكرة وإن اختلف المتلقي. في الماضـي كنت تحفظ النكات، ترتدي الأقنعة وتلعب ألاعيب مضـحكة. تجيء بجوار حسان، تعريهن وتسترهن في إيقاع يذهب الغم،

ويسر الملك فينسى همومه وهزائمه.. اليوم صار هذا الرجل – نفس الرجل – مهرج الشعب، يملك تقنيات يتواصل بهـا مع كل الشعب في آن. والهدف واحد، إزاحة الهـم وتفريـغ النفس وإلهاء الناس عما يمكن أن يسكت قلوبهم.

كانت مشاعري وأفكاري تسيران في كل الجهـات دفعـة واحدة، وقبل أن أفك اشتباك أفكاري، قال: لقد حكمت عليـك بلا رجعة أن تكون مهرج الشعب والملك في نفس الوقت.

لم أدر أأفرح أم أحزن؟ قطعت حيرتـي زغـردة أمـي الطيبة، قادمة من جوف الظلام، حدقت في كل الاتجاهات فلم أر أحدا. استطرد الرجل إني دأبت على مراجعـة سـيرتك الذاتية طوال الأشهر الماضية ووقع اختياري عليك لما لديك من قدرة على الإقناع، ولأفكارك المتجددة التـي تبلـغ حـد العجب أحيانا ولتبحرك في علم الكلام. مرت لحظة صـمت، جاءني بعدها صوته وقد أصبح أكثر حسما.

قال: يجب أن تعلم أن هذه المهمة جد خطيرة، والأمـر ليس سهلا على الإطلاق.. سيكون عليك أن ترضى الجميع، الناس والسلطة، رجال الدين والمتحررين، ترضـي الـدول الصديقة ولا تستثير الأعداء. عليك أن تلهي الناس عما تعجز

السلطة عن مداواته، وأن تتحلى بمرونة فائقة، فالأدوار قـد تتبدل في طلعة شمس، الصديق يمكـن أن يصـبح عـدوا، والثعبان قد تضطر للنوم في أحضانه. ببسـاطه عليـك أن ترضي ا والشيطان في آن.

ستصلك تقارير عن أحوال البلاد، وعليك أن تنظر وتفطن إلى ما نريد إخفاءه وما نريد إعلانه. وإذا شعرت أن حـدثا جللا يراد إخفاؤه، عليك أن تلهي الناس عنه، تبـدع الجديـد الذي يأخذ العقول ويخرس الألسنة.. وسيكون في عونك عدد من المهرجين الصغار، على دراية وخبرة في حياكة الملاهي والمآسي.

اختفت الشاشة واختفى معها ماء وجهي، وظللت أحدق في الظلام غير مستوعب لما حدث. ما دريت ما الذي جعلنـي أغمض عيني بشدة وأنا الجالس في الظلام.

في الصباح التالي اقتادني رجل إلى مبنى عظيم كان هناك جمع غفير في استقبالي شققت الحشد، جلست على كرسـي عريض وبدأت أتفحص ما حولي.

(٢)

مرت عدة شهور، كنت قد تعلمت اللعبة وأجدتها، مـلأت البلاد صخبا وألاعيب، أجدت اللعب على وتر الدين تـارة، ووتر الغرائز تارة. أجدت أيضـا أن أزاوج بـين الأشـياء والاتجاهات، وأستدر عطف الناس حينا وأرهبهم فـي نفـس الحين. استعنت بزملائي المهرجين في أماكن أخرى، كمهرج الكهرباء، ومهرج الماء، مهرج النبـات، مهـرج العسـس، وغيرهم من المهرجين، كل هذا من أجل هدفي النبيل زرع البهجة حتى ولو بالقوة. كنت كما الحاوي الـذي لا تنتهـي ألاعيبه. أتقافز فوق الأوتار والأبنيـة والـرءوس والقلـوب والأقفية. أدمنت القفز والاختفاء. كدت أفتتن بنفسي وبمهارتي إلى أن جاءني يوم عصي على ألاعيبي، تلقيت فيه تقـارير عن انهيارات وهزائم ومصيبة عظيمة ستحل على الـبلاد لا محالة. كانت السلطات تستصرخني أن ألهي الناس عن هـذه المصيبة كيف يمكن أن ألهي الناس عن مصيبة بهذا الحجم، إنها سوف تدمر أحلامهم كيف لي أن أخلـق لهـم أحلامـا أخرى؟؟ كيف وقد استهلكت جميع حيلـي مـن مسـابقات ومهرجانات وأغانٍ تأتيك من الهاتف والغسالة ومن حـدائك ورابطة عنقك، وجوائز تصادفك في الشارع وعلى قارعـة

انهيارك، وحلم الثراء الذي زرعته حتى في جامع القمامـة، كل شيء وليد الصدفة والاحتمال. فأنت في أي مكان يمكـن أن تصبح مليونيرا غدا.. الآن.. البارحة، وقد تفوز بسـيارة لأنك قشرت موزة أو حللت أحجية. هي الصدفة تلـد كـل شيء، وتخبئ في رحمها الفضفاض سيارات وبوارج وألوف من غير عملات بلادك. كل هذا صدى ألاعيبي، ولكنني الآن لا أدرى ماذا أفعل. اجتمعت مع مسـاعدي وزملائـي مـن المهرجين، وعرضت عليهم الأمر فبهتوا، وأصابتهم سـكتة، وأنا الذي عهدتهم بألسنة متدلية حتى أقدامهم.

صرخت فيهم أن يشيروا علي، فقد نفد جراب الحـاوي، قال أحد المهرجين: إن مصيبة بهذا الحجم لا يمكـن إلهـاء الناس عنها حتى لو أعطينا لكل مواطن في الـبلاد زجاجـة خمر ومجلة إباحية. وأخذ يضحك في بلاهة عجيبة، كانـت السخرية مريرة، وبرغم مرارتها، غرق المهرجون في نوبة من الضحك الهستيري، ولم يوقفهم غير جرس الهاتف. كانت مكالمة سريعة، بعدها قلت للمهرجين: إنها فكرة مجنونة حقا، ولكن لم لا. وهل يداوى هذا الأمر إلا بـالجنون، سـيغرق الناس في سكر وعربدة.. نفعلها ولكـن يجـب أن نتعـاون

جميعا، ويتم التنسيق بين المهرجيات كلها، فمثلا على مهرج الشرطة التغاضي عن بعض التجاوزات، وعلى مهرج المال تدبير الأموال اللازمة، أما مهرج الصناعة فله نصيب الأسد في تصنيع هذا الكم من زجاجات الخمر.

تحمس المهرجون للفكرة، والحق أنني لم أرهم يعملـون بروح الفريق مثل هذه الأيام، استغرقوا في العمل والتـرويج للفكرة، واستغرقت أنا في الإحساس بالزعامة. نجحت الفكرة نجاحا مبهجا، وغرق الناس في عربـدة وسـكر، حتـى أن بعضهم قال: إن الذي يحدث ما هو إلا مقدمة لجنةٍ وعدنا بها جميعا، فها هي أنهار الخمر تتدفق في زجاجات، وكأن ذلـك تمرين لهم على جنة الخلد، وخرج أناس يكفرون أصـحاب هذه الفكرة.

غرق الناس في جدلية الحدث، انقسم كل شـخص إلـى أشخاص عدة يؤمنون بهذا وذاك فـي نفـس الآن، يسـتحل الخمر لأنه يقربه من الحلم الأبدي، ويصـلي داعيـا ا أن يحشره في الخلد. كنا نجتمع يوميا فـي رئاسـة المهرجيـة نرصد الأحداث ونحللها، كنا نغذي كل التيارات مـن أجـل بلبلة أكبر فأصحاب فكرة تمرين الناس على الجنة ساعدناهم

بتوزيع قوارير من اللبن، ليحلوا لهم التصـور، والآخـرون ندس في أياديهم منشورات تحرم ذلك، وفي الوقـت نفسـه نرهب كل التيارات بالقبض على قياداتهم، ومن ثم تسريحهم على فترات، لتبدأ اللعبة من جديد. خلقنـا كـذلك تيـارات وسطية يقوم عليها رجال منا أهـل الثقـة تعـادي جميـع التيارات، وتتحالف مع بعضها أحيانا.

أصدرت أوامري ببناء أكبر مصنع فـي العـالم تـابع للمهرجية التي أرأسها، وأسميته مصنع الخلود للمشـروبات المبهجة. انهمرت التبرعات على المشروع حتى تم افتتـاح المصنع في احتفالية فارهة. كانت أفكاري الجهنميـة تلاقـي نجاحات رائدة حتى أن الناس نسوا أعداءهم واعتبروهم أناسا من حقهم العيش في أي مكان، على أرضنا.. على أنفاسـنا.. على أقفيتنا، فالإنسانية ملك للجميع.

تعمدت أن أضع في المجلات التي صارت توزع يوميا صورا لبعض الفتيات من أرض الأعداء، حتى صار الرجال في البلاد يشتهون بنات العدو ويتزوجوهن، وبذلك أسـهمت في حل مشكلة معقدة عجزت عن حلها الحـروب والـدماء.

كنت منتشيا بانتصاراتي، إلى أن جاء يوم قادوني فيـه إلـى زنزانتي الأولى.

مكثت فيها عدة ساعات ثم أخذوني إلى القاعـة القديمـة نفسها، ظهر الرجل علي الشاشة والغضـب منقـوش علـى ملامحه، قال: لقد أخطأت بشدة، فمع اعترافي بنجـاح تلـك الفكرة الجهنمية، لكنك بسذاجة اعتقدت أن هذه آخر المصائب التي ستحل على البلاد، فاستنفذت حيلك الجبارة، ولم تتـرك شيئًا للقادم من أزمات. إن بلادنا يا بني ستظل تعـاني أبـد الآبدين، لكنك استهلكت نفسك واستهلكت طاقة الشعب النفسية إلى أقصى الحدود. لذلك لم تعد تصلح لهذا المنصب، اخلع قناع المهرج وعد تترجى الوظائف التافهة. حـرك الرجـل قدمه وركلني، والغريب أن ركلته خرجت من تلك الشاشـة العملاقة، وأصابتني فعلا. ساعتها اسـتيقظت مـن نـومي مفزوعا. تعوذت با من هذا الكابوس الرهيب. شربت كوبا من الماء حتى آخره.

دخلت أمي الطيبة ربتت على كتفي قالت: لـم أشـأ أن أوقظك، لكن أحدهم ترك لك صندوقا مغلقا ومغلفا بغـلاف رسمي. خرجت من غرفتي بسرعة الحلم، مزقـت غـلاف

الصندوق وفتحتـه، وإذا بزجاجـة خمـر ومجلـة إباحيـة وصرخات أمي.

رباب التي

عندما تقف في عز الظهيرة، فيجتاحك شلال أنثوي، يدخل مسامك كلها في آن. وتأكلك نشوى وجـودك هنـا.. الآن. عندها تلفت حولك وانظر للعـابرين العـاجزين عـن العبور، والواقفين على حد الدهشة لا يعبرونه بقيد سنبلة. لا تتحير واعلم أن رباب التي عبرت من هنا، وأن طيفيتها تمنع فيلسوفًا مثلك من أن يلحظها ويراها تمشـى فـوق قلـوب الكائنات. فقط يمكنك أن تلملم نضارتها من فـوق الوجـوه المشدوهة، وتظل تلملم حتى ينبلج فجـر فيـك، تلـك هـي الطريقة الوحيدة كي تدركها، فهي خفية عليك.. عليك أنـت فقط.

لا تفكر أبدا في خطبتها لأنك لم ترها، واعلم أن لملمـة نضارتها من وجوه العابرين ـ ـ الذين لم يعبروا ـ ـ غيـر كافية لتكون طقسك اليومي، وأنها لن تتخلى عـن طيفيتهـا، وتتبدى جلية أمامك بعطرها وبوقع خطاها فوق رئتيك، لأنك قدمت قربانًا من الورد، وذهبت في تمام التاسعة تدق البـاب بحرارة وجهك الخجول، وأنك لن تتخلى عن فلسـفتك التـي تحجبها عن ناظريك.

فهل تكتفي بشعورك وتبيع عينك لبائع النظارات الـذي مررت به في طريق عودتك ويداك خالية من سلة الورد التي حملتها فوق شرايينك، لا تحادثها في الهاتف لـيلا لتعـرف مكان الورد، ومعنى ابتسامة الأم حين خرجت من الباب الذي مازالت حرارة وجهك تدفئه، ولا تجعل محادثة الهاتف تطول أكثر من بضع ساعات، تتحدث فيها عن نفسك التي لا تعرفها كأنك تعرفها، واختتم المكالمة بغزلية عذبـة، لـم يقلهـا أي عاشق عاش، ولكن تجنب الكلمات الكبيرة لأنك لم تلحـظ أن أذنها دقيقة وملتهبة من دخول الكلمات الكبيرة فيها.

ضع السماعة ولا تشعر أنها دخلت قلبك مرتدية كعبا عاليا ينغرس في أرضية الشرايين. لا تفكر في دروس المواربـة التي ألقتها عليك، فالتورية صنعة الفتيات السـاهرات مـع الهاتف الذي يتدفأ معهن تحت الأغطية.

إذا سألتك أمك الطيبة وهي تعد لك الطعـام السـاخن - الذي أشرت إليه في سيرة ملهاة - عن إحساسك لا تقل كـل الصدق وادخر بعضه للمحادثات الهاتفيـة المدهشـة، التـي تعلمك أن قلبك المدفون منذ سنين تحت الثلج، ما زال يحمل أسباب الحياة ـ ـ وهى التي بلا أسباب ـ ـ وأنـه مـازال

قادرا على ألا يفهم المواربـة ويفسـرها بوضـوح.. إنهـا وضوح. لا تشك أبدا في رغبتها في دخول التجربة بقلـب مفتوح.. من ناحيتين، ولا تشك أن أمها الطيبة مثـل أمـك، ستعاملك كابنها، وأنها لن تفسر أقوال أختك الصغرى بحرفية المحرف.

يجيء يوم تلتقي فيه العائلتان في مكـان مفتـوح.. مـن ناحيتين مثل قلب رباب التي، فلا تجلس صامتًا، لحظـة أن تلحظ تآلفا بين أبيك وأبيها، ووزع ابتساماتك على الحاضرين بالعدل، حتى لا تقول أختها الصغرى، إنك لم تحادثها عـن دراستها - التي تكره الحديث عنها أصلا - لكن العادة جرت أن تلاطف جميع أفراد الأسرة، ولا تبـالغ كـي لا تلاحـظ الغيرة بين الأختين.

كن ودودا بما يكفي أن يقول أبوها: سعدنا بكم وإلى حلقة قادمة، ويذهب واثق الخطى ككـل الأعمـام الـذين مـا إن يسمعونك تقول "يا عمي" حتى يفعلوا عكس ما يفعله عمـك الحقيقي، الذي يتبسط معك ويمازحك كي لا يتعمد إحراجك. انظر ها هي رباب التي تمشي وراء أبيها خجلى، تنظر إلى

قدميها. إنها ظاهرة الآن بلا طيفية ربما لأنك ارتديت قنـاع المريد ونحيت الفلسفة.

حين تجتمع الأسرة حول الشاي الصباحي فـي يومـك التالي، لا تخفي رغبتك في الارتباط بها، واسمع مـن أبيـك على بركه ا . رتب أوراقك جيدا وقص بعض قصصك على زملاء العمل، وعندما تهتف فتاة مبروك فيهتز الهاتف لـيلا في يديك، فلا تشعر بالذنب لأن كيوبيد الشـرير، لا يطلـق سهمين فقط بل أحيانا ثلاثة. فتبكـي الفتـاة صـاحبة الـ ـ "مبروك" كي تنزع السهم الثالث من قلبها ولكن بلا جـدوى. تضع هي السماعة عمدا في غير مكانها، كي تظـل تسـمع بكاءها، ساعتها لا تخف، ضع السماعة ون أن تعض علـى شفتيك، وتتهم نفسك بأنك محور الشر، فأنت لسـت هكـذا، ببساطة لأنك لا تملك أي أسلحة غير تقليدية. لا تحلق عاليـا فـرباب التي لا تعرف الطيران بجناحين، بل اللعـب علـى حبلين، فهي رشيقة حقا وجسدها الصغير يمكنها مـن القفـز بين الجزر بسهولة حقيقية، ليس هناك معنى لسهولة حقيقيـة فلا توجد سهولة مزيفة.

في صباح غير بعيد عن تلك الظهيرة التي لملمـت فيهـا نضارتها، تذهب للعمل كأي صباح، لكنك بعد عدة تهان من هذا وذاك، بعد اكتشافك لتلك الرغبة في الحكي عنهـا مـع الزملاء، يجيئك أحدهم ليقول لك إن شخصا ينتظـرك فـي الدور الأول. انـزل الآن مـن دورك الثـاني - ولتتلاقـى الأدوار-.

بعد أن تسلم على شاب يصغرك بكثير، وبعـد أن تلتقـي عيناك بسوالفه المدلاة ناحية كتفه، قل له ألا يتلعـثم هكـذا، واطلب له كوبا من الماء حتى ينطفئ. عندها سيسلمك قصيدة حبيبها لكامل الشناوي، مكتوبة بأحمر قانٍ - ربمـا كانـت دماؤه – أو دماؤها – سيترك لك لحظة أنثى قبل أن يعلمـك أنه:

محمود الذي:

عاشق قديم..

لا يملك مالا وفيرا لكنه يملك كل شيء.

حتى لحظتك الأنثى هذه. كن عاقلا ولا ترفـع السـماعة لتكلمها، فهي تعرف أنه سوف يجيء، ليلقي عليك الصـباح

الثقيل، لا تفكر في المساومة فهو يملك كل شيء، يملك قلبها حتى في ساعات المكالمات المفعمة بالفخاخ والمواربة.

وأنت ماذا تملك؟.. بعض المال.. سيقول لك اشـتر لـك امرأة أخرى، فأنا لا أبيع نسائي. لا تتعجب أنك تعـيش الآن الدور الآخر، فقد كنت الذي من أعوام طويلة. قلت الذي قاله بنفس التحدي، كانت سوالفك مدلاة وجيبك صفر. سلم علـى غريمك ولا تلو على شيء. فقط أعد السوار للبـائع بـثمن منقوص.

البائع الذي دعا لك بالتوفيق مع صاحبة الهديـة – كـان يمكن أن تكون دعوة مزيفة، لأجل الورقـة الحمـراء التـي دسستها في يده، وألا تقبل، لكن الغريب أنها لم تقبل بسرعة جدا.

ضع المال في جيبك بإحكام حتى لا يسقط أو يسرق في طريق عودتك المزدحم - ترى كيف يمد سارق يده والحسين مدفون على بعد أمتار - أو هكذا نعتقد أنه مازال مدفونًا ولم يسرقوه - لا تتأفف من الزحام، وخذ أصدقاءك إلـى حفـل موسيقي قريب كي تغسل روحك في الـنغم، وإن صـادفت

الذي يمشي وفي يديه فتاة طيفية تذوب.. تذوب، أرجـو ألا تعتقد أنها رباب التي لأنها هي بعينيها.

كنت كاذبا جدا عندما قلت لأحد أصدقائك قبل يومين إن الحياة خالية من المصادفات. لا تبتعد هكـذا كخـائف مـن ثوراتك المدمرة، لأنك ما عدت تقوى عليها. لا تتذكر فـيلم "غزل البنات" لا تتذكره أبدا واترك صديقتك الجريئة تنفلـت من المجموعة وتوقف الذي في يد التي وتحادثهما، لا تندهش من جرأتها فهي بقلبها المرهف، لا تقوى أن تراك مطعونـا هكذا، ولأنها لم تفهم منطق الرقي الذي تشدقت به، معللا أنك لن تذهب لتطفئ أنوار قلبها بكلامك القاسي. لا تذهب للبيـت تركب صمتك، ولا تشعر بالسماء تنزلق، ولا تشك أن الألـم الصدري هذا مقدمة لذبحة ما، أغلق غرفتك جيـدا، كـي لا تسمع أختك تسألك عن التي ، واكتب على جدار الغرفة:

كل امرأة لم تتزوجني ندمت.. حتى أمي.

اقرأ منشور الحائط عدة مرات واخفض صوتك عند حتى أمي حتى لا تغضب أباك.

توقف قليلا إذا صوت الهاتف رن، وعندما تخبرك أمـك – التي لم تتزوجها بطبيعة الحال – أن والد رباب التي على

الهاتف، لا تضحك بتلك الهيستيرية. ضع السماعة برفق دون أن ترد عليه كي لا يسألك عن أي موعد أو وعد، واضـحك بصوتك العالي.. اضحك.. اضحك حتى.. بدون أي حتـى، اضحك فقط.